65

إميل زولا

الفريسة

makthbtna.com

Ahmad2006771



روايات الهلال

روائع القصص العالمى


مكتبتنا

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير طاهر الطناحي

العدد ١٦٦ * أكتوبر ١٩٦٢ * جمادى الأولى ١٣٨٢

No. 166 — Octobre 1962

بيانات ادارية

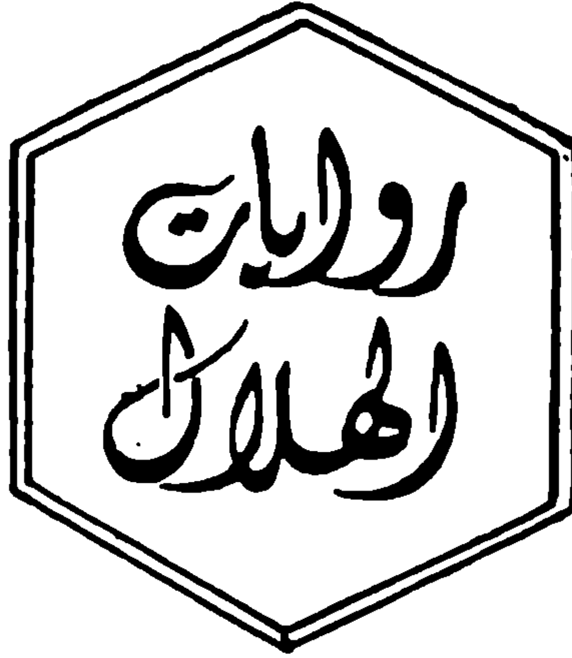
ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما — عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى — فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٥ قرشا صاغا — فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى ١١٠ قروش صاغ و (بالطائرة) ١٥٨ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر انحاء العالم ٥٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية — وفى الخارج بتحويل مصرفى على احد بنوك القاهرة .

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب — القاهرة

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



الفريسة

بقلم

أميل زولا

مؤلف الرواية

ولد أميل زولا فى باريس سنة ١٨٤٠ لاب مهندس ايطالى الاصل، بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليل المال ، وولد بأنف افطس ، وملامح بعيدة عن الجمال .. ولسان ناقص لا يحسن نطق الزاى ، فكان الصبيان فى المدرسة يتندرون عليه بسؤاله عن اسمه فيقول «ثولا» وعندئذ يضجون بالضحك !.. ويجرى هو خلفهم ليضربهم ، فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات ابوه وهو طفل ، فاضطرت امه الشجاعة ان تحترف غسل الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراسة .. بيد انه كان تلميذا متخلفا ، مشغوفا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الادب الفرنسى بالذات ، لانه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما

ولم يكن هناك مناص من ان يهجر مقاعد الدرس ، ليبحث عن عمل .. فعطف عليه بعض ذوى المروءة وعينوه كاتب حسابات فى بعض المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليل فى عد الارقام ليقبض مرتبا يقتات منه وأمه قوت الكفاف .. بيد ان روحه الشاعرة ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ، تاركا هذا العمل البغيض الى ان قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات الكبرى فعينه بائعا .. فكان أبلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس النظر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ونقدا سريعا لها فى دفتر مذكراته .. الى ان ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا انه وجد فى تلك التعليقات براعة ادبية والمعية ، فرقاه محررا للاعلانات

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق الى معبوده : القلم .. ولو لكتابة الاعلانات عن الكتب . ولـكنها كتابة على كل حال ، وعن الـكتب بالذات .. فاشرقت نفسه بالامل ، وصار يخالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصارا ، نشرها فيما بعد باسم « اقصوصات الى نينون » .. فكانت الخطوة الاولى نحو المجد السابغ ، الذى تألقت فيه درره اللوامع : « الوحش الآدمى » و « البيت المتـداعى » و « نانا » و «تريزا » و « صفحة حب »

واميل زولا ، مشهور عنه بأنه كان لا يعرف فى الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والاكل !. فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق ، لينتقى الطيور بنفسه ، ويشتريها بعد ان يتأكد من انها سمينة ! ثم يهتم بالاصناف التى يجب ان تقدم له ، ويأكل منها بافراط !

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٢ ، اشعل مدفأته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل فى تدبيج المقالات والقصص .. فوجدوه فى الصباح مختنقا بغاز المدفأة !.. وقد احرقت جثته ، ورمادها موجود الان فى مقبرة العظماء بالحى اللاتينى بباريس





شخصيات الرواية

ارستيد ساكارد Aristide Saccard	رجل مغامر يسعى الى الثراء
رينيه ساكارد Renée Saccard	زوجة ارستيد ساكارد الثانية
انجيل ساكارد Angele Saccard	زوجة ارستيد الاولى
مكسيم Maxime	ابن آرستيد ساكارد
ايوجين روجون Eugène Rougon	شقيق ارستيد ساكارد
مدام سيدونيه Madame Sidonie	شقيقة ارستيد ساكارد
سيلست Celeste	وصيفة رينيه
السيد لارسونيه M. Larsonneau	شريك ارستيد فى مشروعاته
السيد دى ماسيه M. De Massay	احد عشاق رينيه
لويز دى موريل Louse de Moreuil	خطيبة مكسيم
السيد دى سافريه M. De Saffre	احد عشاق رينيه
السيد دى موريل M. De Moreuil	وآلد خطيبة مكسيم
مدام لورا دورينى Madame Loura D'Aurigny	عشيقة ارستيد ساكارد
الدوق دى روزان Duc De Rozan	عشيق مداملورا دورينى
السيد بيرود دى شاتل M. Beraud Du Châtel	والد رينيه
العمة اليزابث Aunt Elisabeth	عمة رينيه



الفصل الأول

القلب الظامئ

فى أثناء العودة الى القصر ، لم يكن فى وسع المركبة الفاخرة أن تتقدم الا ببطء شديد بين جموع المركبات الكثيرة المتزاحمة العائدة على الطريق بحافة البحيرة ..

وكان الزحام ، فى بعض الاحيان ، يبلغ حدآ ، يجعل سائق المركبة مضطرا الى شد أعنة الجياد حتى تتوقف تماما ..

وكانت الشمس فى ذلك اليوم من أيام شهر أكتوبر ، تميل نحو المغيب فى سماء مكسوة بغلالة من السحب الرقيقة . وكان شعاع منها قد انفلت من بين هذه السحب ، ونفذ من فجوات أغصان الشجر عند الافق البعيد ، وأضاء طريق المركبات بلون أحمر خفيف ..

وفى داخل المركبة ، كان الشاب الوسيم مكسيم جالسا فى ركن من المقعد بينما جلست فى الركن المقابل زوجة أبيه ، الشابة الحسناء رينيه .. وقد قال الشاب فجأة مشيرا الى مركبة من النوع الصغير :

ـ أنظرى .. ها هى ذى لورا دورينى .. هناك فى تلك المركبة .. أرجوك أن تنظرى يا رينيه ..

ورفعت رينيه راسها قليلا ، وطرفت بعينيها كما يفعل الانسان الذى يعانى قصر النظر ، ثم قالت :

ـ لقد حسبت أنها اختفت .. آه .. يبدو أنها غيرت لون شعرها .. أليس كذلك ؟

فأجاب مكسيم ضاحكا :

ـ أجل .. ان عشيقها الجديد لا يحب الشعر الاحمر ..

وتحررت رينيه قليلا من أفكارها القلقة التى جعلتها تجلس فى صمت وسكون .. ومدت ساقيها كأنما تريد أن تتراخى ، ثم أطلت براسها من نافذة المركبة لتتسلى برؤية المجتمع الباريسى اللاهى ، وقد راح يستعرض ألوان الابهة والترف بالمركبات الفاخرة ، والجياد المطهمة ، والملابس الثمينة وكل ما يمكن أن يشتريه المال الوافر من أسباب الترف والبذخ ..

ورات رينيه فيمن رات ، الدوقة دىسترينخ ، ومدامدىلورنز ، والبارونة دى مينهولد ، والكونتيسة فانسكا ، ومدام دى جيد ، ومدام دى تيسيه ، والشابة الحسناء سيلفيا .. كلهن فى أفخم ملابس ، وافخر مركبات ، واكمل زينة ..

اما من الرجال والشباب ، فقد رأت الدون كارلوس ، وسليم باشا التركى بطربوشه الاحمر ، والكونت دى شابرى ، والمستر سمبسون الامريكى ..

وعادت المركبات الى السير بعد هذه الوقفة الوجيزة .. وعاد الطريق الذى يحف بالبحيرة فى قلب غابة بولونيا يبدو كأنه زاخر بموكب استعراضى احتفالا بعيد ..

ولكن هذا الموكب الفاخر كان يتكرر كل يوم ، مثل هذا الوقت، لان باريس كانت فى ذلك الحين كأنها غانية خرجت من السجن وراحت ترقص فى الشوارع باستهتار يكاد يبلغ حد الجنون !

وتراجعت رينيه الى ركن المركبة ، وتكورت بين لفائف ثوبها الفاخر والاغطية المخملية وهى ترتعد قليلا من برد الخريف .. ولكنها لم تلبث أن ابرزت رأسها ونظرت الى مكسيم الذى كان يعلق بعبارات مرحة على كل سيدة من سيدات المجتمع تبدو فى مركبتها .. وقالت فجأة :

ـ اخبرنى يا مكسيم .. أترى حقا أن لورا دورينى جميلة ؟ لقد كنت تتغنى بجمالها فى ذلك اليوم ، عندما كنا نتحدث عن مزاد بيع جواهرها .. وبهذه المناسبة ، هل رايت العقد والتاجالماسيين اللذين اشتراهما لى والدك من مجموعة جواهرها ؟

فأرسل مكسيم ضحكة ماكرة وقال :

ـ نعم .. ان أبى رجل بارع حقا ؟ لقد عرف كيف ينقذ لورا دورينى من الافلاس ، وكيف يرضى زوجته الحسناء بمثل هذه الهدية الفاخرة ..

فهزت رينيه كتفيها قليلا ، وتمتمت باسمة :

ـ يا لك من خبيث ! ..

وعادت مرة أخرى ترنو من النافذة للفرجة على خلاصة المجتمع الباريسى اللاهى الصاخب فى تلك الفترة من الامبراطورية الثانية .. امبراطورية نابليون الثالث ..

وبعد أن ابتسمت ردا على تحية مدام هانز ـ زوجة صاحب مصانع النسيج المشهورة فى اقليم كولمار ـ تراخت مرة ثانية الى داخل المركبة .. وهنا أرسل مكسيم ضحكة جعلتها تقول له فى اقتضاب :

ـ لا .. اننى أشعر بالضيق يا مكسيم .. لا داعى للضحك الان .. أرجوك ..

ولكن مكسيم قال بلهجة هازلة :

ـ آه .. ما أتعسنا حقا .. وما أشد غيرتنا

فتظاهرت بالدهشة ، أو لعلها دهشت حقا وهى تقول :

ـ الغيرة ؟ .. ممن ؟ ..

ثم أردفت قائلة كأنما تذكرت :

ـ آه .. اتعنى من هذه البدينة لورا دورينى ! لا .. أؤكد لك ان الغيرة منها لم تخطر ببالى يوما . وآذا كان والدك قد دفع لها ديونها وانقذها من الافلاس ، فان هذا يعنى انه يقيم للمال وزنا ، بعكس ما كان يقال عنه .. وهذا سيجعله موضع اعجاب سيدات المجتمع الراقى .. آه .. اننى أترك لهذا الزوج العزيز كل حرية ..

وابتسمت .. وكانت قد نطقت عبارة « الزوج العزيز » بلهجة الانسان الذى يتحدث عن صديق لا يهمه كثيرا ..

ودارت بنظراتها داخل المركبة برهة ، ثم تمتمت كأنما تحدث نفسها :

ـ كنت ارجو ٠٠ أوه ٠٠ ولكن لا .. اننى لست غيرى .. لست غيرى على الاطلاق

ثم توقفت عن الحديث فجأة ، وأردفت قائلة بسرعة :

ـ كل ما فى الامر اننى أشعر بالملل ..

وتراخت فى ركنها من المركبة صامتة .. ولكنها كانت ترنو بطرف عينيها الى صفوف الاشجار الطويلة الممتدة على الجانب الآخر من الطريق ٠٠ ومن وراء الاشجار ، كانت المروج الخضراء تمتد الى غاية البصر وقد اكتست بحمرة الشمس الغاربة ..

وبعد هذه البرهة من الصمت ، عادت تقول بلهجة من يريد أن يدخل فى أى نزاع مع الغير :

ـ اننى اشعر بالسأم ٠٠ بالسأم القاتل ٠٠ أتسمع ؟

فقال مكسيم منكرا :

ـ ان هذا شيء لا يسر احدا .. يبدو أن أعصابك مختلة يا « رينيه »

فاجابت بصوت جاف :

ـ أجل ٠٠ ان اعصابى مختلة ٠٠

ثم أردفت قائلة بلهجة الأم الحانية :

ـ لقد بدأت اكتهل ٠٠ لسوف اتم الثلاثين من عمرى بعد عام او عامين ٠٠ وليس فى هذا ما يسر او يبهج ٠٠ ولكنك ياولدى العزيز لن تستطيع أن تدرك شعورى وانت فى ربيعك العشرين

وهنا قاطعها الشاب قائلا :

ـ هل طلبت منى الخروج معك اليوم لكى اسمع هذا الاعتراف ؟ !

فابتسمت فى شحوب وهزت كتفيها ٠٠ وعندئذ قال مكسيم :

ـ من حقك ان تتذمرى وتضجى بالشكوى ، لانك تنفقين على ملابسك فقط أكثر من مائة الف فرنك فى العام .. وبحساب الجنيهات الذهبية ، نحو خمسة آلاف جنيه لويسى ؟ وتقيمين فى قصر منيف لا يكاد يكون له نظير الا قصور الامبراطور ، وفى هذا القصر من الخدم والاتباع مالا تعرفين لهم عددا ٠٠ وان الصحف لتنشر عن كل ثوب جديد لك وكأنما هو حدث من اهم احداث البلاد ،

وان نساء المجتمع يحسدنك ، وكل رجل يتمنى أن يدفع من عمره عشر سنوات فى سبيل قبلة على اطراف أصابعك .. اليس هذا كله حقا ؟ !

وقبل ان تجيب عليه ، استطرد يقول :

ـ واستطيع أن اقول انك أكلت من كل تفاحة .. وشربت من كل كأس .. أليس كذلك ؟ !

ولم يختلج عصب واحد فى وجه رينيه ، بينما أردف مكسيم قائلا :

ـ انها لفضيحة ؟ .. كيف تسأمين برغم ذلك كله ؟ ماذا تريدين من الحياة اكثر من هـذا ؟ .. ما هى الاحـلام التى تراودك ؟ اخبرينى يارينيه ؟ ..

وهزت كتفيها كأنما تقول له انها لا تدرى .. وبرغم اطراقة رأسها ، فقد لاحظ مكسيم أمارات الجد والاسى على وجهها ؟ ومن ثم آثر أن يمسك لسانه عن حديثه الجاد المغلف بالهـزل .. ثم راح يرقب صفوف المركبات ، التى لم تلبث أن تفرقت فى الطرق المتشعبة بعد أن بلغت نهاية البحيرة

وعاد مكسيم يقول وهو يرى الايدى الكثيرة التى كانت تحيى رينيه من معظم المركبات ، والنظرات المتزاحمة عليها من الراجلين وراكبى الجياد :

ـ انظرى .. ان الجميع يحبونك ويتزاحمون للنظر اليك كأنك ملكة غير متوجة ، وها هو ذا حبيبك السيد دى ماسيه يكاد يرسل اليك قبلاته على آجنحة الهواء .. !

وكان السيد دى ماسيه ممتطيا صهوة جواد فاخر ، ومرتديا ملابس انيقة ، ولا يفتأ يوجه الى رينيه نظرات ملؤها الافتتان .. فلما نظرت اليه ، أومأ اليها برأسه ، ولكنها هزت كتفيها فى غـير مبالاة ، بينما استطرد مكسيم فى حديثه قائلا :

ـ حقا لقد اسبغت عليك الحياة كل ما يشتهى الانسان فيها فماذا تريدين بعد ذلك ؟ ..

فرفعت رينيه رأسها ، ونظرت اليه بعينين تنمان عن شـعور الانسان الحائر الذى يريد شيئا دون أن يعرفه ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ أريد شيئا مختلفا .. !

فضحك مكسيم وقال :

ـ ولكن مادمت تملكين كل شيء .. فما هو هذا الشيء المختلف الذي تريدين ؟

وفيما كانت المركبة تمضى فى قلب الغابة ، قالت رينيه بعد لحظة طويلة من الصمت :

ـ لست ادرى .. ولو كنت ادرى لبذلت جهدى للحصول على هذا الشيء المختلف .. لقد مللت حفلات الرقص ، والملاهى ، ودعوات العشاء ، وكل هذا اللون من الترف والترفيه .. انها جميعا رتيبة متشابهة مثيرة للسأم القاتل . أما الرجال ، فانهم لا يطاقون .. لا يطاقون أبدا .. !

ولما ضحك مكسيم . أسرعت هى قائلة :

ـ نعم .. لا يطاقون .. ولكننى لا أضمك اليهم .. انك لا زلت اصغر من ان تثير الملل فى قلب امرأة .. ولكن .. لو اننى اخبرتك عن الحاح والدك فى الاستمتاع بى فى ايام زواجنا الاولى وعن اسراف العشاق الآخرين فى الارتماء عند قدمى ، لأذهلتك .. إننى اصارحك بهذا كله لاننا صديقان حميمان .. انت وأنا . ولهذا اقول لك كل ما نفسى .. اننى شديدة الملل من حياتى هذه .. حياة المرأة الثرية جدا ، المعبودة من جميع الرجال . وانى لأشعر احيانا بالرغبة فى ان اعيش كما تعيش هذه الوصيفة الملكية لورا دورينى ..

فابتسم مكسيم فى مكر وقال :

ـ وكيف تعيش لورا ؟

ـ كما يعيش الشاب الاعزب الذى يقضى كل ليلة مع امرأة جديدة !

وران الصمت على الاثنين بضع لحظات ، قبل أن تقطعه رينيه قائلة فى صوت ملول :

ـ ومع ذلك فلا بد أن يكون لديها متاعبها الخاصة .. والواقع أنه ليس فى الحياة ما يثير ، واذا استمرت الحياة بى على هذا النحو ، فلا بد أن أموت من فرط السأم .. لا بد أن يحدث لى شيء

مختلف يجعل للحياة طعما حلوا جديدا ، شيء خاص بى ، لا يحدث لكل انسان أو أى انسان .. شيء مجهول مثير للمتعة النادرة ..!

وتراخى مكسيم فى مقعده ، ولاحت عليه سمات التفكير الجاد وهو يرد قائلا :

ـ انك على حق يا زوجة أبى العزيزة .. ان الحياة قاتلة ما لم يكن فيها ما يثير النفس ويجدد شبابها .. وأنا أيضا طالما حلمت بحدوث شيء مختلف . اننى سئمت الاسفار والرحلات والاستغراق فى هذا اللهو .. حتى الحب سئمته ، سئمت أن أحب وأن أكون موضع الحب .. لقد أصبح هذا النوع من الحب سهلا رخيصا مثيرا للملل !

وهنا كانت المركبة قد وصلت الى مدخل الحديقة المترامية الاطراف المحيطة بالقصر القائم بشارع « بوليفارد مالشيربز » . وقد بلغ من فخامة القصر ورواءه أن المسكن الصغير المخصص للبواب كان يبدو كأنه معبد اغريقى رائع الجمال !

ووثب مكسيم من المركبة ، وهي توشك أن تمرق من البوابة الكبيرة المصنوعة من الحديد المطروق ، والمطلية باللونين الاسود والذهبى ، والمزينة على الجانبين بتماثيل صغيرة من المرمر ترمز للعذارى العاريات وقد حملت كل منها مشعلا مضاء بغاز الاستصباح ..

وأمسكت رينيه بيد مكسيم ، وقالت له قبل أن ينصرف :

ـ انت تعرف طبعا اننا سنقيم مأدبة عشاء فى تمام الساعة السابعة والنصف ، فليس أمامك غير ساعة واحدة لتستبدل ملابسك .. لا تدعنا ننتظرك طويلا ..

ثم أردفت قائلة وهى تبتسم :

ـ أن والدك يريد منك ان تولى لويز ـ ابنة موريل ـ كل اهتمام

فهز مكسيم كتفيه ، وقال بغير مبالاة :

ـ ياللسخف !.. اننى على استعداد لأن أتزوج ، أما النجوى والغزل فهذا ما لا أطيقه .. أرجوك يا زوجة أبى العزيزة أن تنقذينى الليلة من براثن لويز ..

فشدت رينيه على يده مصافحة ، وقالت :

ـ لو لم أكن زوجة لأبيك لغازلتنى ؟.. أليس كذلك ؟..
وضحك مكسيم عاليا كأنما سمع فكاهة نادرة ..

وتحركت المركبة ـ بعد انصراف مكسيم الى مسكنه الخاص ـ حتى توقفت أمام مدخل القصر نفسه .. وكان المدخل تحفة نادرة من الاعمدة البللورية تتوسطها درجات من المرمر ، عريضة خفيضة، مكسوة بالسجاجيد الشيرازية الفاخرة التى تغوص فيها الاقدام..

أما القصر بأبهائه وممراته وقاعاته والحديقة الشتوية المحاطة بالجدران البللورية فى داخله ، فكان أقرب الى قصور الاحلام منه الى شىء ملموس .. كل قطعة فيه ذهب .. وخشب أثمن من الذهب .. وحرير أثمن من هذا وذاك .. كان فى جملته قصرا ينم عن البذخ المجنون، والرغبة المخبولة فى ألوان من الترف قلما تتيسر لانسان واحد فى هذه الدنيا ..

***

وصعدت رينيه الى جناحها الخاص عبر ممرات وأبهاء خاصة بذلك الجناح ، ومضت الى مخدعها الذى قالت عنه احدى الصحف انه ليس له مثيل حتى فى القصر الامبراطورى . ثم تركت وصيفتها المخلصة سيلست تخلع عنها ملابس الخروج، ثم تساعدها فى ارتداء الثوب الجديد الذى ستقابل به المدعوين والمدعوات فى حفلة عشاء تلك الليلة ..

وبعد أن أتمت زينتها ، تحركت الى النافذة وراحت تطل على الحديقة التى كانت غارقة فى بحر من الظلال ، وعلى الشارع العريض الممتد أمامها حيث كانت المركبات تمرق فيه ومصابيحها تبدو كأنها عيون صفراء تبحث عن شىء مجهول ..

وظلت رينيه واقفة ، وهى تشعر بالأسى والانقباض ، دون أن تدرى لذلك سببا معقولا . وعادت بها الذاكرة الى أيام طفولتها فى بيت أبيها الكبير القائم فى حى « آيل سان لويس » حيث ظلت أسرتها العريقة تعيش فى جنباته قرنين كاملين .. وكان والدها ينتمى الى أسرة بيرود دى شاتل التى توارثت مناصب القضاء جيلا بعد جيل . وانتقلت ذكرياتها الى زواجها المفاجىء بذلك الرجل الأرمل الذى باع نفسه ليتزوجها ويغير اسمه من روجون الى ساكارد .. لقد تزوجها هذا الرجل ، ثم قذف بها فى خضم

هذه الحياة الفائرة الثائرة الفارقة تحت اكداس المال والترف ، والتى جعلت راسها يدور وعقلها يهتز يوما بعد يوم ..

ثم عادت بذاكرتها الى أحلام الصبا ، عندما كانت تلعب مع أختها كريستين فى براءة وعذوبة .. وفجأة لاح لها أنها ترى شيئًا فى المستقبل المجهول .. شيئا ملأ نفسها بالخوف والتشاؤم ، وجعل جسدها الفض يرتعد ..

وفى تلك اللحظة عادت وصيفتها سيلست ، وهمست فى أذنها :

ــ ان السادة المدعوين يلتمسون من سيدتى أن تشرفهم بالذهاب اليهم .. لقد حضر عدد منهم الى قاعة الاستقبال ..

واستدارت رينيه ، ثم ابتسمت وهى ترى نفسها فى المرآة أثناء مرورها بالغرفة ، ثم هبطت الى قاعة الاستقبال ..

وكان معظم المدعوين ، فى الواقع ، قد وصلوا . وقد رأت بينهم أختها كريستين .. فتاة حلوة بسيطة فى نحو العشرين من العمر ، وعمتها اليزابث ، أرملة موظف حكومى كبير ، وشقيقة زوجها مدام سيدونيه روجون ، وكانت امرأة مكتهلة ثعلبية الملامح ، دنيئة النظرات ، حقيرة المظهر رغم ملابسها الفالية . ثم السيد دى موريل الذى كان قد خلع فى تلك الايام شارة الحداد على وفاة زوجته ، وكانت معه ابنته المريضة الحدباء لويز فى ثوب أبيض فاخر ، ثم بقية المدعوين من الرجال ذوى المراكز الرفيعة أو ذوى الثروات الطائلة ، والمدعوات من النساء اللاتى يتصدرن المجتمع الراقى فى باريس . وكان بين الرجال السيد دى ماسيه الذى كان يبدو عليه سمت العشيق أو الحبيب الذى اقتربت نهايته فى قلب محبوبته . وكذلك كان بين الرجال اثنان من كبار المقاولين الاثرياء ــ مينون وشارير ــ وكان بينهما وبين ساكارد ، رب القصر ، معاملات مالية واسعة النطاق ..

وكان أرستيد ساكارد واقفا فى مدخل القاعة يحيى كل وافد جديد ، ويتبادل الاحاديث والفكاهات مع الخاصة من أصدقائه

وأثار دخول رينيه موجة من غمغمة الاعجاب والانبهار .. وقد كانت ، فى الواقع « تحفة » بشرية رائعة .. بجمالها المثير ، وبشرتها الناعمة الوردية ، وثوبها الفريد الذى صنعته خصيصا لها أشهر محلات الازياء فى العالم « محلات ورمز وشركاه » والعقد الماسى

المحيط بعنق رائع الجمال ، والتاج الماسى الموضوع على شعر ذهبى تتهدل خصلاته على الكتفين العاريين

وقد بلغ انبهار المدعوين بجمالها أن وثبت الماركيزة الشابة دى سبانيه ، وهرعت اليها هاتفة وهى تمسك بكلتا يديها :

ــ ما أبهاك يا عزيزتى ..

ولم تستطع مدام هانز أن تتمالك أعصابها ، فاقتربت منها وقالت بصوت يقطر بالحسد :

ــ آه .. أهذا هو العقد والتاج ؟!

وأومأت رينيه برأسها .. وهنا ضجت القاعة بتعليقات الاعجاب والثناء الممزوجة بالحسد . وكان مؤداها أن ذلك المدعو أرستيد ساكارد لا يحصل الا على أحسن شيء ، وأغلى شيء فى الدنيا .. ذلك ان الجميع كانوا يعلمون ان الزوج دفع فى هاتين القطعتين من الحلى خمسة وستين ألف فرنك ، أى نحو ثلاثة آلاف جنيه ذهبى .. أما الثوب وحده فقد قدره البعض بنحو ألف وخمسمائة جنيه ذهبى !

واستبد الحماس بالماركيزة دى سبانيه ، فاستدعت ارستيد ساكارد اليها وقالت له :

ــ دعنى أهنئك ياعزيزى .. فما أعظمك من زوج !

وانحنى ساكارد أمامها شاكرا ، وقد نم وجهه عن الرضى والزهو وكان فى تلك اللحظة يختلس النظر ، بطرف عينيه ، الى المقاولين الكبيرين اللذين كانا يصغيان فى احترام لكل ما يقال بالقرب منهما ..

وأقبل مكسيم عندئذ فى ملابس السهرة الانيقة ، وانحنى على أبيه وراح يتهامس معه ، كما يفعل أى صديقين ، وهو يختلس النظرات أيضا الى المقاولين الكبيرين ..

ولما اكتمل عدد المدعوين ، اقبل أحد الخدم فى الزى الرسمى الفاخر ، وأعلن أن الطعام قد أعد .. فانتقل المدعوون ، كل رجل مع سيدة ، الى قاعة الطعام التى كانت ، ككل شيء فى القصر ، ذهب .. وبللور .. وخشب أثمن من الذهب .. وحرير أثمن من هذا وذاك !

ودارت الاحاديث المختلفة اثناء تناول الوان الطعام الفاخرة ، والشراب المعتق .. وكان معظمها يدور حول الحالة السياسية ، والمشروعات الجديدة ، والانشاءات المتوالية التى جعلت باريس فى ذلك الحين أجمل مدن العالم ..

وقد قال السيد هوبيل دى لاندى فى هذا الشأن :

ــ ان ما يجرى فى باريس الان يذهل العقل .. فأنا ــ الباريسى القديم ــ كدت أضل طريقى أمس وأنا أمضى من فندق دى فيل الى فندق لوكسمبرج . نعم .. ان باريس الان هى عاصمة الدنيا !

ولما فرغ المدعوون من تناول الطعام ، انتقلوا الى قاعة أخرى فاخرة حيث جلس الرجال يدخنون فى جانب منها ، والنساء يتبادلن الحديث والهمسات فى جانب آخر ..

وفى شرفة القاعة ، انفرد السيد دى ماسيه بالشاب مكسيم وقال له :

ــ أخبرنى يا مكسيم ؟ .. ماذا بدر منى حتى أصبحت رينيه تعاملنى كأن كل ما كان بيننا من حب قد انتهى ؟ أرجوك يا عزيزى مكسيم .. أرجوك أن تعرف منها سبب غضبها على .. أخبرها عن مبلغ عذابى من صدها وهجرانها !

فضحك مكسيم وقال :

ــ الا هذا ؟.. ان أعصاب رينيه متوترة ، وأنا لست مستعدا لمواجهة ثورتها .. يمكنك أن تعالج الامر معها بنفسك ..

ولكنه أردف قائلا ، وهو يشعل سيجارا فاخرا :

ــ هل تريد منى أن أتوسط لك عندها ؟!

ــ نعم ياعزيزى مكسيم .. اننى صديقك الحميم كما تعلم ؛ وكل ما أرجوه أن تبلغ رينيه اننى مخلص فى حبها ..

ــ حسنا جدا .. لسوف أقول لها هذا . ولكننى لا أضمن لك النتيجة ، بل اننى لا زلت أخشى أن تثور على ..

وعاد الاثنان بعد ذلك الى قاعة الجلوس ، حيث انضم السيد دى ماسيه الى الرجال ، واتجه مكسيم الى جانب السيدات ، ثم لم يلبث أن انفرد مع لويز ــ الفتاة الحدباء ــ فى ركن خاص ، وراح يداعبها ، ويتضاحك معها ، ويتبادل واياها الفكاهات ، واللمسات .

وكانت الفتاة رغم مرضها ، جميلة الوجه ، موفورة الحيوية ، عارمة الانوثة .. مثلها مثل كل فتاة أو شاب قدر عليه أن يموت مصابا بداء الصدر فى أوج حياته ..

أما رينيه ، فانها لم تلبث ــ بدافع السأم والملل ــ أن تسللت الى الحديقة الشتوية البللورية التى تتوسط الطابق الاول كله ، والمليئة بمختلف أنواع النباتات والاشجار الاستوائية النادرة ..

ووقفت رينيه بجوار تمثال رخامى على شكل « ابو الهول » كان منصوبا فى مدخل الحديقة .. وراحت ، من وراء الجدران البللورية، ترقب ما يجرى فى قاعة الجلوس ، ولا سيما ما كان يدور بين لويز ومكسيم من غزل وضحك ومداعبات جنسية مثيرة ..

وظلت رينيه فى وقفتها ترى .. وتشعر بهذا الاحساس الجديد المثير الذى راح يزلزل كيانها ..!

لقد أدركت فجأة ماذا تريد من الحياة ..!

عرفت ما هو « الشىء المختلف » الذى تريده ..!

عرفته بالرغبة الجنسية الملتهبة التى سرت فى جسدها والتى جعلتها تهفو بكل ذرة من كيانها الى ذراعى رجل ، يروى قلبهـــا الظامىء ، ويعتصر من أعماق نفسها كل احساس بالملل ..!



الفصل الثانى

الباحث عن الثراء

ونعود الى الوراء سنوات ..

الى الاسابيع الاولى من عام ١٨٥٢ ..

فى يوم من هذه الايام ، هبط أرستيد روجون على باريس ، كما يهبط البازى على بقايا معركة ليأكل منها حتى يتخم ..!

وكانت معه زوجته الاولى آنجيل .. جاء بها من بلدته بلاسان فى أقصى الجنوب . وكان أبوه قد استطاع فى تلك الايام المضطربة أن يظفر لنفسه بمركز محصل ضرائب .. أما هو ، فكان قد خرج لفوره من مشروع فاشل جعله لا يكاد يملك قوت يومه ..

فلا عجب اذا كان قد حط على باريس منهوما كالذئب المسعور ، مقسما أن يغتنم كل فرصة للثراء ، حريصا على الا يفشل مرة أخرى ..

وكانت زوجته آنجيل بسيطة المظهر ، هادئة الطباع ، الا انها رفضت باصرار أن تفترق عن ابنتها كلوتيلد ــ وكانت طفلة فى الرابعة من عمرها ــ وكان ارستيد على استعداد لأن يتركها فى دير ببلدته ، الا انه جاء بها معه ارضاء لزوجته .. أما ابنهما مكسيم ، فقد تركاه صبيا فى الحادية عشرة ، بالمدرسة الداخلية ببلدة بلاسان ..

واستقرت الأسرة الصغيرة فى مسكن صغير متواضع بشارع سان جاك . وبعد أن اطمأن ارستيد على استقرار زوجته وابنته فى ذلك المسكن ، خرج فى ليلة وصوله وقد استبدت به رغبة لاستكشاف مدينة باريس ..

كان يريد ان يتجول فيها ، وهو يشعر فى أعماق نفسه أنهـــا المدينة التى ستملأ يديه بملايين وملايين الفرنكات .. المدينة التى لا يحتاج فيها المرء الا الى الذكاء والجراة الممزوجة بالحرص ، وفتح العينين والاذنين دائما لمعرفة كل ما يجرى حوله حتى يستطيع فى النهاية ان يغترف من الاموال بقدر ما يستطيع ان يحمل ..!

ويظل يسير من شارع الى آخر ، ومن حى الى حى ، وهو يزداد احساسا انه يسير فى الميدان الذى ستدور فيه معركته الفاصلة مع الحظ والثراء ..

وهبط الليل .. وتضاعفت آماله وأحلامه فى الاضواء الساطعة المرسلة من واجهات المتاجر ومن المقاهى والمشارب والملاهى المتراصة على جوانب الشوارع الكبرى فى قلب العاصمة ..

وشعر أنه ضل الطريق .. الا أنه حين رفع عينيه وجد نفسه فى شارع فدبورج سان اونوريه ، أى بالقرب من قلب العاصمة . وكان يعلم أن أحد اخوته ـ ويدعى ايوجين روجون ـ يقيم فى شارع مجاور ، وهو شارع بنتييفر ..

وكان أرستيد عندما قرر غزو باريس ، قد رأى أن يعتمد على اخيه ايوجين هذا الذى ساهم بنصيب كبير فى الانقلاب الحكومى الاخير ، والذى كان يعمل يومذاك محاميا مغمورا ، ولكن مستقبله السياسى الضخم كان مضمونا ..

على أن أرستيد رأى ، بغريزة المقامر ، الا يذهب الى أخيه هــذا فى تلك الليلة .. ومن ثم عاد الى مسكنه بخطوات بطيئــة ، وهو يشعر بالحسد لأخيه الذى ضمن مستقبله ، ولم يعــد المنصب الوزارى الا على بعد خطوة واحدة منه . ولكن .. حسنا .. لسوف يصبح هو فى يوم قريب من أكبر شخصيات المجتمع الباريسى ، ومن أشهر رجال المال والاعمال ، بحيث تغطى ثروته وشهرته ومكانته على أخيه حتى ولو أصبح رئيسا للوزارة !

***

وفى صباح اليوم التالى ، ذهب الى أخيه فى مكتبــه .. وكان يتوقع أن يراه غارقا فى ألوان من الترف والأبهة ، ولكنه فوجىء

واستقبله أخوه ايوجين ببساطة قائلا :

ــ كنت انتظر هذه الزيارة منك يا أرستيد ..

وراح أرستيد يعتب على أخيه أنه لم يشركه معـــه فى أسرار الانقلاب الحكومى ، وأن رابطة الدم كانت تحتم عليه أن يتخذ منه مساعدا أو نصيرا حتى يستطيع بدوره أن يؤمن مستقبله ويضمن لنفسه مركزا ممتازا فى الحكومة الجديدة ..

وظل ايوجين يبتسم بهدوء حتى فرغ ارستيد من حديثه ، ثم قال :

ــ لا عليك .. ان جميع الاخطاء يمكن أن تصلح ، وانى واثق أنك ستحقق كل آمالك فى باريس ..

وخيل الى أرستيد أن أخاه قد نفذ الى أعماق نفسه ، فأغضى ببصره وكأنما يخشى أن يفطن هذا الأخ الذكى الى مزيد مما يدور بهذه النفس ..

وعاد ايوجين يقول :

ــ لقد حضرت لأجد لك عملا .. اليس كذلك ؟ اننى أفكر فى مستقبلك دائما ، ولكننى لا أرى الآن عملا مناسبا لك . وبطبيعة الحال ينبغى أن اكون حريصا فى اختيار العمل المناسب لك .. فلا شك أنك تريد أن تستقر فى عمل ما يمكنك فيه أن تنمى ثروتك وتحقق أهدافك دون أن تعرض نفسك أو تعرضنى معك لأية فضيحة من أى نوع .. أرجوك ، لا تقاطعنى .. فنحن هنا على انفراد ، ويحسن أن نتبادل الرأى بكل صراحة ..

وأخفى ارستيد استياءه بضحكة عالية ، بينما استطرد ايوجين فى حديثه قائلا :

ــ انا أعرف أن الذكاء لا ينقصك يا أرستيد ، وأن من غير المحتمل أن تعرض نفسك للخطر بلا موجب . وثق أننى سأعد لك الوكر الذى تستطيع أن تفرخ فيه كما تشاء .. والى أن يحدث هذا ، فيمكنك أن تأتى الى بين الحين والآخر لتأخذ جنيها أو نحو ذلك

وبعد أن تبادلا الحديث برهة عن الاحوال السياســية ، نهض ارستيد للانصراف .. وهنا قال له ايوجين وهو يودعه :

ـ ارجوك الا تبحث عن عمل بنفسك ، وانما عليك أن تنتظر حتى احصل لك على العمل المناسب .. فأنا لا أحب أن أرى أخا لى يتسكع فى غرفات الانتظار بمكاتب الآخرين ..

وكان ارستيد يحترم أخاه ويقدر مواهبه .. ومن ثم وعده بالانتظار ، ثم عاد الى مسكنه وراح يتبادل مع زوجته آنجيل الرأى فى كيفية انفاق مبلغ الخمسمائة فرنك الذى قدمه اليهما والد آنجيل قبيل سفرهما . وقررا فى النهاية ان ينفقا مائتى فرنك فى شراء بعض الضروريات اللازمة لحياتهما الجديدة ، ثم انفاق المبلغ الباقى بحساب حتى يكفيهما شهرا على الأقل ..

وفى خلال هذا الشهر ، زار اخاه مرتين ليحفزه على الاسراع فى ايجاد عمل له .. وكان أخوه فى كل مرة يوصيه بالصبر ، ويؤكد له انه لم ينسه ، وانما يحاول دائما أن يجد له العمل المناسب !

وقبل نهاية الشهر بيومين او ثلاثة ، استلم من اخيه رسالة يطلب منه فيها أن يزوره فى مكتبه بشارع بنتييفر . وطار ارستيد الى أخيه بقلب خافق ، وكأنما يطير ليستلم أول دفعة من الثروة الطائلة التى يحلم بها ..

وهناك ــ فى المكتب الكبير البسيط ــ استقبله أخوه ، وقال له وهو يقدم اليه سجلا :

ــ اطمئن .. لقد قمت أمس بجميع اجراءات تعيينك فى عملك الجديد .. وما عليك الا أن تذهب غدا وتستلم هذا العمل . لقد تم تعيينك مساعد معاون فى فندقدى فيل ، والمرتب الفان واربعمائة فرنك فى العام ..

وتسمر أرستيد فى مكانه ، وقد شحب وجهه ، وعجزت يده عن الحركة لاستلام السجل . ثم خطر له فجأة ان أخاه يمزح معه ، اذ ليس من المعقول أن يقبل أخ مرشح لمنصب وزارى أن يعمل أخوه الاكبر مساعد معاون فى فندق ؟

وبأى مرتب ؟..

بنحو عشرين جنيها ذهبيا فى الشهر !..

وأدرك ايوجين ما يدور بنفس أخيه من مشاعر الاستياء وخيبة

الامل ، فقال له فى صوت ينم عن الضيق :

ــ اذن فأنت على غير ما كنت اعتقد .. يبدو انك تعيش كالفتاة المراهقة على أحلام اليقظة .. تريد أن تغمض عينيك لتجد نفسك مقيما فى قصر منيف زاخر بالخدم والاتباع ، ملىء بكل أنواع الترف. حسنا .. لا بأس فى هذا كله ، ولكن عليك بالصبر . عليك بالكفاح والعمل ليلا ونهارا اذا شئت أن يكون لك هذا كله .. الا ترى كيف أعيش الآن رغم دورى الكبير فى الانقلاب الحكومى ؟ .. اننىأستعين بالصبر ، وأنتظر .. وغدا سوف ترى بنفسك نتائج الصبر والانتظار ..

وكان يتحدث فى احتقار شديد لأحلام أخيه الصبيانية ، ومع ذلك قال له ليخفف من وقع حديثه :

ــ انني مقدر مواهبك ، وواثق من قدرتك على تحقيق آمالك .. والواقع اننا معشر السياسيين فى حاجة دائما لرجال من أمثالك ، لأن السياسى المحنك يختار أنصاره دائما من الرجال المتلهفين على المال ..

ثم ابتسم ايوجين ، وأردف قائلا :

ــ وانت تعرف السبب طبعا ..

ولم يجب أرستيد ، ولكنه كان يدرك معنى حديث أخيه .. كان يدرك أن السياسى يختار أنصاره من المتلهفين على المال .. اى الذين على استعداد للتضحية بكل المبادىء الاخلاقية فى سبيل المال !

وعاد ايوجين يقول بغضب حين رأى أخاه غير مقتنع بوجهة نظره :

ــ ماذا كنت تتوقع ؟.. هل كنت تنتظر أن أعينك مديرا عاما أو عضوا فى الجمعية التشريعية ؟.. انك لم تتم حتى دراستك فى كلية الحقوق ، وليست لك أية خبرة فى الاعمال الحكومية أو فى الشئون السياسية ، فماذا كنت تتوقع ؟! ان الميزة الوحيدة التى تتميز بها عن غيرك هى اصرارك على جمع أكبر ثروة ممكنة .. ولست فى شك من انك ستحقق هذه الرغبة يوما ما .. ولا سيما فى هذه الفترة التى اضطربت فيها كل مقاييس الامور ..!

ونهض ايوجين وهو يردف قائلا :

ــ اقبل هذا المركز البسيط يا ارستيد .. انه الخطوة الاولى لتحقيق آمالك ، وانا اخترته لك عن عمد .. لسوف تستطيع عن طريقه أن تتعرف بشخصيات كبيرة كثيرة .. وهذا هو الخيط الاول فى طريق الثراء الملتوى ..

وبعد برهة صمت ، عاد ايوجين يقول :

ــ عليك أن تفتح أذنيك وعينيك جيدا .. عليك أن تتلفت حولك بذكاء وفطنه لتعرف الطريق السليم المؤدى الى الهدف مباشرة . وتذكر ما قلته لك ، اننا فى فترة تاريخية يستطيع فيها كل مواطن ذكى جرىء أن يغترف من الثراء بقدر ما يستطيع . ولكن حذار أن ترتكب خطأ يعرضك أو يعرض سمعتى لأية فضائح .. اننى فى هذه الحالة سأكون أقسى عليك من اشد أعدائك !

وكان لهذا التهديد فى نفس أرستيد أثر أقوى من كل الوعود التى وعده بها أيوجين .. على أنه أدرك فى النهاية أن ايوجين ترك له كل فرصة يمكن أن ينتهزها ليجمع المال من أى سبيل ، وبكل طريقة مشروعة أو غير مشروعة ، بشرط الا يسمح لأحد بكشف أمره !

فماذا يريد اكثر من هذا ؟..

ان عمله فى الفندق سيتيح له نوعا من الاستقرار المادى فى حياته البسيطة ، وهو بمثابة الوكر الذى سيهيىء له فرصة الافراخ فيه كما يشاء ..

وقبل أن يهم بالانصراف ، قال له أخوه فجأة :

ــ اننى أفكر فى تغيير اسمى ..ويحسن أن تغير أنت أيضا اسمك ، وبذلك لا يربط الغرباء بينى وبينك عندما احاول ــ وأنا فى منصبى الكبير ــ أن أساعدك بين الحين والآخر ..!

فقال أرستيد :

ــ حسنا ، اننى لا أمانع فى هذا ..

ــ ما رأيك فى اسم عائلة زوجتك .. ارستيد سيكرود ؟

فرفع ارستيد عينيه الى السقف وراح يردد :

ــ ارستيد سيكرود .. ارستيد سيكارود .. ارستيد

سيكاردوت ، لا .. كل هذه أسماء ليس فيها رنين الذهب .. آه .. ارستيد سيكارد .. هذا اسم لا بأس به ، والأفضل أن يكون ارستيد ساكارد .. ما رأيك يا عزيزى ايوجين ؟

فابتسم ايوجين وقال :

ـ نعم .. انه اسم رنان قد يجعل منك مجرما أو مليونيرا ..!

***

وفى صباح اليوم التالى استلم ارستيد ساكارد عمله بالفندق ، حيث أدرك مدى نفوذ أخيه ، لأن ادارة الفندق رحبت به ، وسلمته عمله دون أن تتخذ معه اجراءات الاختبار المعتادة !

وسارت الحياة به كما تسير عادة برجل متوسط الحال ، يعيش مع زوجة هادئة الطباع ، راضية بكل شيء ، لا يسعدها الا أن تقوم بخدمة زوجها ، ومداعبة طفلتها ، وتنظيف مسكنها ..

وبعد أشهر قليلة ، انتخب أخوه ايوجين نائبا عن دائرة بلاسان الانتخابية ، وبدأت الصحف تبرز اسمه على أنه وزير العدل المنتظر ..

ورغم شعور أرستيد بالحسد لأخيه ، الا أنه أدرك فى النهاية أنه لن يستطيع فى يوم ما أن يبز أخاه فى المناصب العليا ، وأنه عليه فقط ، أن يتميز عنه بالثروة الطائلة . ولكنه فى خلال عمله ، كان قد أدرك أيضا أن الملايين لا تجمع جزافا ، وانما عن طريق الكفاح المر ، والجرأة البالغة ، والذكاء اللامع ، والصبر ، والقدرة على كتمان أدق خواطر الانسان عن الغير .. !

وأهم من هذا كله فتح العينين والاذنين حتى لا تفلت الفرصة من اليدين عندما تمر ..!

وكل انسان فى الحياة تمر به فرصة العمر .. والسعيد السعيد الذى يقبض عليها فى الوقت المناسب ..

وفى أوائل عام ١٨٥٣ ، ارتقى أرستيد الى منصب معاون فندق دى فيل بعلاوة عشرة جنيهات كل شهر .. ولكن هذا الدخل كان يحتم عليه أن يعيش حياة محدودة ليس فيها شيء يسير من الترف . وكانت زوجته قد بدأت تشكو من اعتلال صحتها ، كما ظهر الشحوب واضحا على وجه ابنته كلوتيلد .. الا أنه رغم هذا ، ظل

يعيش مع أسرته فى حدود دخله البسيط ، دون أن يجرؤ على الاستدانة من أحد ، أو مد يده الى أموال الغير ، أو حتى طلب المعونة من أخيه ايوجين .. كان يريد أن يجعل مرارة الحرمان الحافز الدائم الذى يدفعه نحو تحقيق آماله فى الثراء العريض ..

وهكذا ظل ارستيد ـ كما قال له أخوه ـ يفتح أذنيه وعينيه ، ويرى كل ما يدور حوله بعين البازى المتحفز ، وينصت الى كل ما يقال بالقرب منه ، ويتسلل الى غرفات الفندق متظاهرا بأنه يقوم بعمله ، ويحرص على أن يسمع كل ما يدور بين اثنين أو أكثر من النزلاء الكبار .. وكان فى هذا كله يتظاهر بالبراءة والسذاجة والغفلة والانكباب على العمل ووضع وجهه دائما فى سجل يحمله بين يديه ، حتى أصبح معروفا بين الجميع بأنه انسان بسيط محدود الذكاء لا يكاد يدرى شيئا عما يدور حوله ..

وعلى هذا النحو عرف الشىء الكثير ..

وأهم شىء عرفه أن الامبراطور نابليون الثالث قد قرر أن يغير الشىء الكثير من معالم باريس ، وأن يفتح فيها الشوارع الواسعة العديدة ، وأن يمد الطرقات من الثكنات العسكرية بالضواحى الى قلب العاصمة ، وأن يقيم من المنشآت والمؤسسات والقصور والمتاحف ودور اللهو والموسيقى والتمثيل ما يجعل باريس عاصمة الدنيا ..

وأخذت الافكار المختلفة تتبلور فى ذهن أرستيد حتى عرف أخيرا الطريق الى الثراء العريض .. ولكن كان ينقصه رأس المال الذى يبدأ به السير فى مثل هذا الطريق ..

وذهب الى أخيه ايوجين فى اوائل عام ١٨٥٤ وقال له :

ـ ان لدى أفكارا كثيرة يمكن بها أن أصل الى الثروة الطائلة من أقصر طريق .. ولكن ينقصنى رأس المال اللازم للبدء !

وهنا قال له أخوه بكل بساطة :

ـ عليك أن تبحث عنه وتحصل عليه ..

فأومأ ارستيد برأسه وقال :

ـ نعم .. نعم .. وهذا ما سوف أفعله ..

ولكن الايام والشهور أخذت تمر دون أن يجد الوسيلة التى

يستطيع بها جمع العشرين أو الثلاثين الف فرنك التى يبدأ بهـا السير فى الطريق السريع نحو الثراء ..

وكانت له أخت ، أرملة ، تدعى سيدونيه .. وكانت قد رحلت الى باريس مع زوجها ــ كاتب المحامى السابق ــ حيث افتتحـا متجرا لبيع الخضر والفاكهة فى شارعسان أونيريه . وكان مسكنهما الصغير المكون من غرفتين يقوم فوق المتجـــر ، ومن ثم صنعت سيدونيه سلما خفيا داخل المتجر يؤدى الى المســكن . هذا عدا السلم الآخر الخلفى الذى يصل المسكن بحارة ضيقة متفرعة من الشارع ..

وبعد وفاة زوجها ، أخذت سيدونيه تتـــاجر فى كل شىء ، وتتوسط فى كل عمل تجارى بسيط بين الباعة والمشترين .. ثم وسعت نطاق أعمالها ، فأخذت تحمل مختلف السلع الصغيرة فى حقيبة جلدية ، وتبيعها بالبيوت للأسر الفقيرة والمتوسطة ..وبهذه الطريقة عرفت الكثير من الاسرار والفضائح وأخبار الحب والخيانة والافلاس ..

وكانت تضع فى المتجر بعض السلع القديمة التى لا يشتريهـا أحد ، ذرا للرماد فى العيون .. ولكن هذا لم يكن يمنع من دخول بعض الرجال الى المتجر ، ثم الصعود الى المســكن القـائم فوقه ، حيث تكون العشيقات فى انتظارهم !

وكانت سيدونيه الأرملة ، فى نحو الخمسين من عمرها ، جامدة الوجه ، ثعلبية الملامح ، لا يهمها فى الحياة الا أن تجرى هنا وهناك ، ولا تكف عن الدوران .. ومع ذلك لا تكاد تحصل الا على ما يسد الرمق ..!

وكان ارستيد ساكارد يعرف أن أخته سيدونيه تقوم بأعمـال مختلفة .. وانها ، كأى فرد فى عائلة روجون ، تسعى لجمع الثروة بأية وسيلة ، ولكن مظهرها الرث لم يكن يدل على أنهـــا جمعت شيئا رغم كل ما تبذله من نشاط ..

وذهب اليها ذات يوم فى مسكنها القائم فوق المتجر ، وأخـذ يحدثها عن حاجته الشديدة الى رأس مال يستطيع أن يبدأ السير به فى الطريق السريع نحو الثراء .. ولما هم بالانصراف ، قالت بلهجة الانسان النادم على شىء :

ـ آه .. لو لم تكن متزوجا يا أرستيد .. !

ونظر اليها مستنكرا .. ولكنها لم تزد ..

ومرت شهور أخرى .. واذا زوجته تصاب بنزلة برد عنيفة ، واذا بالمرض يتطور الى التهاب رئوى خطير ..

وبادرت مدام سيدونيه ـ أخت أرستيد ساكارد ـ الى تمريضها، وكان التمريض على طريقتها الخاصة ، من الاعمال الكثيرة التى تقوم بها . ولكن حالة المريضة ازدادت سوءا حتى قال الطبيب ذات مساء انها لن تعيش حتى صباح اليوم التالى ..

وانصرف الطبيب ، وجلست مدام سيدونيه فى غرفة المريضة بجوار المدفأة ، تنصت الى دقات الساعة الكبيرة ، وتشعر كأن دقاتها وقع أقدام ملك الموت وهو يزحف ببطء نحو الغرفة ..

وكانت الصغيرة كلوتيلد تلعب بدميتها بجوار الفراش ، وهى لا تكاد تشعر بشىء الا ببهجتها باللعب مع دميتها ..

وعاد أرستيد من الخارج ، ورفع ابنته وقبلها .. ثم نظر فى اشفاق الى زوجته الراقدة الساكنة التى لم يكن يختلج فى وجهها عصب واحد ، ثم نظر مستفسرا الى اخته التى جذبته الى ركن الغرفة البعيدة ، وقالت له بصوت هامس واضح النبرات مبلل بالدموع :

ـ ان زوجتك المسكينة فى النزع الاخير .. هكذا قال الطبيب

ولم يجب ساكارد ، وانما احنى رأسه فى سكون ، بينما أردفت أخته قائلة وكأنما الموت قد اختطف آنجيل فعلا :

ـ ياللمسكينة .. لقد كانت طيبة القلب ، وفية ، صابرة .. انك قد تجد زوجة اخرى أجمل وأخف ظلا ، ولكنك لن تجد قلبا طيبا مثل قلبها ..

ولما مسحت دموعها ، نظر ساكارد اليها وقد شعر انها تريد أن تغير موضوع الحديث . ومن ثم قال :

ـ هل لديك ما تريدين أن تقوليه لى ؟

ـ نعم .. لقد كنت أعمل من أجلك .. من أجل الموضوع الذى حدثتنى عنه ، وأعتقد أننى وجدت الحل للمشكلة . ولكن .. لا .. ليس هذا وقت الحديث فى موضوع كهذا . صدقنى .. ان قلبى

يتمزق من أجل آنجيل ..

وعادت تمسح دموعها .. وتركها ساكارد حتى تستطرد فى الحديث من تلقاء نفسها . ولم يطل انتظاره ، لأنها لم تلبث أن قالت :

ــ اننى أعرف فتاة شابة يريد أهلها ان يزوجوها فورا . لقد حدثت لها مأساة ، وان لها عمة على استعداد لأن تضحى بالشيء الكثير من أجل الفتاة .. من أجل تجنب الفضيحة ..

وصمتت فجأة حتى ترى تأثير حديثها على أخيها .. وقد حدث ما توقعت ، اذ لم يلبث ساكارد أن قال فى لهفة وضيق :

ــ اكملى الحديث .. ماذا حدث للفتاة حتى يريد أهلها أن يزوجوها بسرعة ؟!

ــ الشيء المعتاد فى مثل هذه الظروف .. فبعد أن أتمت مرحلة الدراسة الثانوية ، خدعها رجل واعتدى على عفافها . وكان ذلك أثناء اقامتها مع زميلة لها فى الريف . وقد عرف ابوها الحقيقة اخيرا بعد أن ظهرت أعراض الحمل عليها .. وهو يريد ان يقتلها الآن . ولكن عمتها ــ الراغبة فى انقاذها ــ تآمرت معها واتفقت الاثنتان على أن تقولا للوالد ان الطرف الآخر رجل شريف مستعد أن يصلح خطأه بالزواج من الفتاة ..

فقال ساكارد بصوت ينم عن خيبة الامل :

ــ معنى هذا أن الرجل الذى اعتدى عليها فى الريف سوف يتزوجها !

ــ لا .. انه لا يستطيع ، لأنه متزوج ..

وساد السكون برهة ، لم تكن تقطعه الا حشرجة انفاس آنجيل ، والا أحاديث الصغيرة كلوتيلد مع دميتها ..

وأخيرا بدأ ساكارد يلقى أسئلة سريعة قصيرة على أخته ، فقال :

ــ كم عمر هذه الفتاة ؟

ــ تسعة عشر عاما ..

ــ وفى أى شهر من شهور الحمل ؟

ــ فى الشهر الثالث .. ولكن من المؤكد أنها ستجهض ..

ــ وهل هى من أسرة غنية عريقة ؟!

ـ من أسرة عريقة .. وكان أبوها قاضيا سابقا .. ولكن حالة الأسرة المالية فوق المتوسط ..

ـ وما هو الثمن الذى تريد العمة أن تدفعه لتتلافى الفضيحة ؟

ـ مائة ألف فرنك .. !

وساد الصمت مرة أخرى .. وكانت مدام سيدونيه قد توقفت عن اصطناع البكاء ، بعد أن تحول مجرى الحديث الى هذا «النوع» من المعاملة التجارية . واختلس أخوها اليها نظرة جانبية ثم قال :

ـ وما هى « عمولتك » من هذا المبلغ ؟!

ـ سنتحدث عن هذا فيما بعد .. ولكننى ارجو ان ترد لى هذا الجميل فى يوم ما ..

وانتظرت لحظات .. ولما لم يجب ، استطردت قائلة :

ـ حسنا ؟ هل قررت شيئا ؟ ان العمة تكاد تفقد عقلها من فرط القلق . لقد وعدت أخاها ـ والد الفتاة ـ أن تخبره باسم الطرف الآخر غدا صباحا ، فاذا قررت الموافقة ، فسوف أرسل اليهــا بطاقتك لتقدمها للوالد حتى يحدد لك موعدا للمقابلة ..

ولاح كأن ساكارد يفيق من حلم طويل .. فاذا هو ينتفض ، ثم يقول فجأة بصوت ملىء بالمرارة :

ـ ولكننى لا أستطيع .. لا أستطيع ..

وحملقت مدام سيدونيه اليه بنظرة زاخرة بالسخرية والرثاء . وهنا اندفعت دماء آل روجون الى رأسه ، فاذا به يتناول بطاقة من حافظة نقوده ، ثم يقدمها الى أخته التى اخذتها ووضعتها فى مظروف وكتبت عليه العنوان ، وانصرفت ..

واستدار ساكارد فجأة نحو فراش زوجته حين سمع صــوتا غريبا يصدر عنه .. ولشــــد ما أفزعه أن رآها تهم بالجلوس فى فراشها ، وقد بدا فى عينيها الجاحظتين انها سمعت كل شىء .. سمعت حديث الصفقة المخجلة التى عقدها زوجها مع أخته وهى لا تزال على قيد الحياة ..

واستبد الفزع بارستيد ، وهو يحسب أن زوجتــــه نجت من الموت ، وأنها ستعود الى الحياة لتحرمه من المائة ألف فرنك التى ستكون نواة لمشروعاته من اجل الثراء .. وتقدم نحوها وقد اطلت

من عينيه نظرات مخبولة قاتلة .. وبدا أن آنجيل فهمت ما يدور بنفسه ، فازداد فزعها وحاولت أن ترفع يديها أو أن تصرخ لتنجو من القتل على يديه

ويبدو أن أرستيد ساكارد أدرك بدوره ما يصطرع فى أعماق نفسها ، فهدأت مخاوفه .. وانجابت عن بصيرته سحابات الفزع والرغبة فى القتل ، فراح يقترب منها وهو يقول فى عطف :

ـ لا .. لا .. يا انجيل .. لا تخافى . اننى آسف .. آسف جدا .. انك تعرفين شدة رغبتى فى جمع المال .. فهلا تغفرين لى ..؟

وأخذت أمارات الفزع تنحسر عن وجه آنجيل ، وهى تتراخى مرة أخرى على الفراش بعد هذه الصحوة الاخيرة ..

وفى هدوء تام لفظت أنفاسها الاخيرة ..

ووقف ارستيد امامها يحلم بالثراء ..!





الفصل الثالث

أكداس الذهب

وبعد أن فرغ أرستيد من دفن زوجته ، انفرد بأخته فى المسكن الصغير ليلا حيث سمع منها تفاصيل مأساة الفتاة التى قرر أن يتزوجها ..

وفى ايجاز شديد ، أخبرته أخته أن الفتاة من عائلة بيرود دى شاتل ، وأن أباها — كما سبق القول — كان قاضيا سابقا ، وانه يعيش مع أخته الارملة مدام أوبرتو ، فى بيت الاسرة الكبير فى حى « أيل سان لويس » ، بعد ان رفض أن يتولى منصبا قضائيا جديدا فى حكومة الانقلاب عام ١٨٥١

وكان للسيد دى شاتل ابنتان .. كبراهما رينيه ، وصغراهما كريستين . وقد الحق رينيه فى مدرسة للراهبات لاتمام مرحلة دراستها الثانوية ، فلما أتمتها ذهبت للاقامة بضعة أيام فى ضيعة يمتلكها والد زميلة لها بالمدرسة . وهناك سقطت ضحية رجل يمت الى صديقتها بصلة القرابة ..!

ولما عادت الى بيت والدها ، لاحظت عمتها عليها اعراض الحمل .. ولم تلبث الفتاة ان اعترفت لها بالحقيقة وهى تنشج بالبكاء ، وكادت العمة أن تفقد عقلها من فرط الحزن والقلق حين علمت أن الطرف الآخر فى المأساة رجل فى نحو الاربعين من عمره ، متزوج ووالد لثلاثة ابناء وبنت

ولم يسع العمة — بعد أن بدأت أعراض الحمل فى الظهور — الا أن تخبر الوالد المفجوع بالحقيقة بعد أن أكدت له أن الطرف الآخر قرر أن يصلح خطأه ويتزوج رينيه ، وبذلك تتلافى الاسرة تلك الفضيحة المدوية ..

وكانت مدام سيدونيه تتردد على ذلك البيت لتبيع للعمة وللفتاتين صنوفا من مختلف السلع . وقد استطاعت ذات يوم أن تعرف مأساة الفتاة رينيه ، وان تؤكد للعمة المحزونة أنها سوف تجد لها الحل ، وتقدم لها الرجل الذى يقبل زواجها ويسترعرضها مادام الثمن كبيرا

وأعربت العمة اليزابث عن شكرها العميق لهذه السيدة الطيبة الخدوم ، واكدت لها انها ستدفع من أموالها الخاصة مائة الف فرنك للرجل الذى يتقدم لانقاذ الموقف ..

وتم اللقاء الاول بين أرستيد ساكارد وبين العمة اليزابث فى مسكن مدام سيدونيه القائم فوق المتجر . وبينما كان أرستيد يتحدث عن موضوع الزواج بلهجة الرجل العملى الذى يعقد صفقة رابحة لجميع الاطراف ، كانت العمة المسكينة تشعر بالاضطراب والارتباك ولا تدرى ماذا ينبغى ان تقول !

وكان هو اول من بدأ الحديث عن الثمن ، بلهجة المحامى الذى يناقش موضوعا يهم موكله . وقد قال فى معرض حديثه ان مبلغ المائة الف فرنك يعتبر ثمنا زهيدا لسترعرض « المدموازيل » دى شاتل . وقد ضغط على كلمة « مدموازيل » عن عمد . ثم قال ان السيد دى شاتل سوف يحتقر بلا شك أى زوج فقير لابنته : لانه سيظن أن هذا الزوج التجأ الى تلك الطريقة الرخيصة ليتزوج — قسرا — من فتاة غنية . ولهذا فانه لا يستطيع — حفظا لكرامته وحسن سمعته — أن يتقدم الى والد رينيه طالبا يدها للزواج مالم يكن فى جيبه مائتا الف فرنك على الاقل !

واضطربت العمة اليزابث ، وازدادت ارتباكا .. ولكنها وافقت على دفع المبلغ . وهنا راح ارستيد ساكارد يؤكد لها انه ليس صياد ثروات ، وانما هو فقط يريد أن يبدو أمام الوالد فى مظهر الرجل الثرى الذى لا يهمه كثيرا ثراء زوجته !

واعقبت هذه الزيارة ، زيارة اخرى قامت بها العمة اليزابث لارستيد ساكارد فى المسكن الجديد الذى اتخذه — بمساعدة أخته — ريثما تتم صفقة الزواج ..

وذهلت العمة اليزابث من جمال المسكن ، وهدأت مخاوفها ..

وايقنت أخيرا أن ارستيد ليس بالرجل الذى يريد اصطياد المال بأية وسيلة ، وانما هو انسان خير يريد أن يستر عرض فتاة من أسرة عريقة محافظة !

وكان المسكن شقة مفروشة بأثاث فاخر ، وكان صاحبها قد سافر الى يطاليا ليقضى بضعة شهور تاركا لصاحب المنزل حرية تأجير الشقة اذا سنحت الفرصة ..

وكان ارستيد ـ قبل هذه الزيارة الثانية ـ قد فكر فى جميع الاحتمالات ، وانتهى الى قرار معين رأى انه سيحقق له أكثر مما يطمع . ومن ثم قال للعمة بعد أن تحدثا عن الزواج :

ـ أرجوك يا سيدتى الكريمة ان تكفى عن الحديث عن المال .. بل اننى أريد أن تظل للمدموازيل رينيه حرية التصرف فى ثروتها كما تظل لى مثل هذه الحرية ..

ووافقت العمة اليزابث على هذا الرأى . وكان السيد دى شاتل قد أعرب عن رغبته فى عدم مقابلة « الطرف الآخر » الا بعد ان يتم الزواج . ووافق ارستيد على هذا .. وقبل ان تنصرف العمة اليزابث من هذه الزيارة الثانية قالت له :

ـ ان ثروة اخى تتكون من املاك عقارية واراض زراعية . وأؤكد لك أنه لن يعاقب ابنته رينيه بحرمانها من نصيبها الشرعى فى الميراث ، بل أكثر من هذا سوف يمنحها عند الزواج ضيعة فى سولون تساوى ثلاثمائة ألف فرنك ، فضلا عن بيت فى باريس يساوى مائتى ألف فرنك

ودارت رأس ساكارد ، لانه لم يكن يتوقع أن تبلغ ثروة زوجته هذا القدر الكبير .. اما العمة اليزابث فقد استطردت تقول :

ـ ولكن ينبغى أن أقول أن ايراد ضيعة سولون لا يدر فى العام غير ستة آلاف فرنك فقط .

وهز أرستيد كتفيه كأنما لا يعنيه هذا الامر كثيرا .. وعادت العمة تقول :

ـ ومن ناحيتى سوف أقدم لرينيه هدية بسيطة .. فأنا بدون أبناء ، وسوف تؤول ثروتى الى رينيه واختها يوما ما .. ولكن هذا لا يمنعنى من ان أقدم لكل منهما هدية زواج . وسوف تكون هديتى

لزواج رينيه بضعة افدنة على طريق شاردن ٠٠ انها ضيعة تساوى مائتى الف فرنك !

وانتفض ارستيد قليلا عند سماعه كلمة «طريق شاردن» ولكنه زم شفتيه حتى لا تفلت منه كلمة تكشف عما يدور بنفسه . ولم تستطع العمة إليزابث بطبيعة الحال ان تفهم شيئا من انتفاضته الحقيقية ، ومن ثم استطردت تقول :

ــ لقد كتبت عقد البيع لتكون هذه الضيعة ملكا لابنها البكر .. فاذا مات آلت الضيعة اليها فورا

ومرة أخرى حاول ارستيد أن يبدو هادئا رغم الصراع العنيف الذى كان يدور بنفسه . ان كلمة « طريق شاردن » أثارت فى ذهنه أفكارا كثيرة عن مشروعات ضخمة . وفجأة قال :

ــ انك لم تخبرينى أين يقع البيت الذى سيهبه السيد دى شاتل لابنته فى باريس ؟

ــ انه يقع فى شارع دى لا بيبنيير ، بالقرب من منعطف شارع داستورج

وكان لهذه الاجابة البسيطة تأثيرها الكبير على أرستيد ساكارد ، فاذا هو لا يتمالك نفسه من الاعراب عن بهجته ، ثم اذا هو يقترب بمقعده من العمة اليزابث ويقول :

ــ كفى حديثا عن هذا المال اللعين يا سيدتى الكريمة .. دعينى احدثك عن نفسى قليلا ، وعن السبب الحقيقى الذى دفعنى للموافقة على هذا الزواج . اننى الآن رجل أرمل .. ماتت زوجتى تاركة لى ابنة طفلة ، وغلاما فى مدرسة داخلية . ولن أستطيع بطبيعه الحال أن أعيش بلا زواج ، وانا لازلت فى الاربعين من عمرى . واعترف أن الزواج من فتاة جميلة عريقة فى سن التاسعة عشر أمر يبهج قلب رجل مثلى حتى ٠٠ حتى لو كانت هذه الفتاة تمر بازمة قاسية٠٠ بل ان الرجل الذى يمتلىء قلبه بحب الخير لابد له أن يتقدم بكل شهامة لانقاذ الموقف واسعاد الجميع . ولو كان لدى من المال ما يحفظ كرامتى أمام الوالد ، ما طلبت من سيدتى فرنكا واحدا..

وظل يتحدث على هذا النحو حتى كادت العمة اليزابث تطير من فرط السرور . لقد كانت فى أول الامر تخشى ان تقع ابنة أخيها

فى براثن رجل محتال ، ولكن مخاوفها لم تلبث ان تلاشت وهى ترى أمامها رجلا كريما لبقا ينحدر من عائلة مثل عائلتها ، وله شقيق مرشح لمنصب الوزارة

وتم الاتفاق اخيرا على الذهاب معا ، فى اليوم التالى ، الى موثق العقود لاتمام الصفقة ..

ولما انصرفت العمة اليزابث ، أسرع ارستيد الى مقر عمله بفندق دى فيل ، حيث أخذ يفحص بعض السجلات الخاصة بمشروعات الطرق الجديدة .. ولما تحقق له ما أراد ، أثار بعض الاعتراضات عندما ذهب فى اليوم التالى مع العمة اليزابث الى موثق العقود ..

لقد طالب قبل توثيق العقد ان يكون لرينيه حرية بيع المنزل وضيعة سولون لاستثمار ثمنهما فى مشروعات تدر أرباحا أكثر . ولم توافق العمة اليزابث على هذا الرأى قبل ان تستشير أخاها . وبعد أن غابت نحو ساعتين ، عادت تقول ان اخاها فوضها فى اتخاذ كل ماتراه من اجراءات

وتمت اجراءات كتابة العقد ، ودفع ارستيد المائتى الف فرنك واستلم العقد الذى ينص على أن « دوطة » رينيه هى المنزل القائم بشارع بيبنيير ، والضيعة الموجودة فى سولون ، وأن لها مطلق الحرية فى بيعهما واستثمار ثمنهما فى مشروعات تدر أرباحا أكثر ..

وتحدد موعد للزواج فى أقرب فرصة ممكنة ..

وبعد أن تم هذا كله ، ذهب ساكارد لزيارة أخيه ايوجين . وماكاد هذا يسمع عن زواج ارستيد بفتاة ثرية من عائلة دى شاتل ، حتى اعرب عن دهشته قائلا انها « ضربة معلم » بلا ادنى شك !

وهنا قال ارستيد :

ـ لقد طلبت منى أن أبحث عن رأس المال .. وقد بحثت ..

وبدت الحيرة على وجه ايوجين .. ولكنه ، بذكائه ، ادرك الحقيقة . ومن ثم ابتسم فى مكر وقال :

ـ أحسنت صنعا .. انك رجل بارع حقا ، ولعلك تريد ان اكون شاهدا فى حفلة زواجك .. تأكد ان هذا ما أنوى أن أفعله . بل لسوف أدعو جميع أعضاء اللجنة التشريعية بالمجلس لحضور هذا الزواج حتى تبدو أمام انسبائك رجلا عظيما ..

وفيما هو يفتح الباب لاخيه ، اردف قائلا بصوت هامس :

ـ اننى لا أريد ان اندمج فى مشكلة معقدة بسبب هذا الزواج فى الوقت الحاضر ، لان أمامى مشروع قانون أريد ان أظفر بموافقة أعضاء اللجنة التشريعية عليه .. اى ارجو الا تكون السيدة التى ستتزوجها قد اصبحت فى الشهر التاسع ؟!

وهنا وجه ساكارد الى أخيه نظرة قاسية جعلته يقول لنفسه وهو يغلق الباب وراءه :

ـ هذه فكاهة سوف تكلفنى غاليا ، لانى أعرف ان أخى لاينسى الاساءة !



وتمت مراسم الزواج بهدوء فى كنيسة حى أيل سان لويس . ولم يلتق ساكارد بعروسه رينيه الا فى الليلة السابقة على عقد الزواج . وكان اللقاء فى ساعة مبكرة من المساء ، وباحدى قاعات الاستقبال بمنزل آل دى شاتل الكبير ...

وكان طبيعيا ان ينظر كل من العروسين الى الآخر بفضول شديد . وكانت رينيه بعد أن اطمأنت الى تلافى الفضيحة ، قد استعادت مرحها وحيويتها وخفة ظلها و «شقاوتها» .. وكانت فتاة طويلة ممشوقة القوام ، فاتنة الجمال ، ناضجة الانوثة ، رغم انها لم تكن قد بلغت بعد العشرين من العمر ..

ورغم أنها رأت ساكارد قصير القامة ، محروما من الوسامة ، الا انها شعرت بالميل اليه بسبب الذكاء الشديد المرتسم فى عينيه وعلى وجهه ، وربما أيضا بسبب لباقته فى الحديث ، وحرصه البالغ على آداب السلوك . وكان هو ـ من جانبه ـ قد فوجىء بطول قامتها وان لم تكن أطول من المعتاد ، الا أنها كانت أطول منه .. على انه استطاع ان يبدو طبيعيا ، هادئا متزنا ، بحيث لو أن أباها رآهما فى تلك اللحظة لايقن انهما يعرفان بعضهما البعض منذ شهور طويلة

وفى اليوم التالى لعقد الزواج ـ الذى حضره ايوجين روجون ـ سمح الوالد باستقبال الزوجين . وقد بكت رينيه بين يدى أبيها حين رأته محزون النفس ، مكسور الجناح ، ذليل السمت . أما ساكارد فقد بذل كل ما لديه من جهد ليبدو أمام الوالد الوقور فى

سمت المذنب التائب الذى جاء يلتمس الصفح والغفران !

وبعد أن قبل الوالد ابنته فى جبينها ، استدار الى ساكارد وقال له بصوت هادىء :

ـ سيدى .. لقد تعذبنا كثيرا بسببك ، وكل مانرجوه أنتحاول ان تجعلنا ننسى هذه الاساءة التى وجهتها الينا ..

ثم مد يده ، وصافح زوج ابنته ..

واستقر الزوجان فى بيت أنيق بشارع دى ريفولى .. ومضت الايام هادئة ، واستطاع ساكارد ان يكتسب مودة الوالد دى شاتل، وان ينال حب الصغيرة كريستين التى كانت تداعبه وتعابثة .. أما رينيه ، فكانت تذهب الى بيت أبيها الكبير مرة فى كل أسبوع ، كانت تقضى يوما كاملا مع أختها كريستين فى غرفتها الخاصة الكبيرة الكائنة فى جناح مستقل بالمنزل الكبير ..

وكانت رينيه تشعر كلما دخلت هذه الغرفة الواسعة ، كأنماهى تدخل مملكة خاصة بها .. جنة وارفة الظلال .. عالما من عوالم الطفولة السعيدة الخالية من المتاعب والآلام والقلق . وكانت الغرفة زاخرة بألوان وصنوف من الدمى والمقاعد الصغيرة والمناضد وألعاب التسلية ، وكل ما يشتهى طفل أو طفلة فى هذه المرحلة من حياته ..

وبعد شهر من الزواج ، حدث ما كانت تتوقعه مدام سيدونيه ـ اخت ارستيد ساكارد ـ اذ اصيبت رينيه بحالة اجهاض مفاجىء، ربما بسبب اسرافها فى ضغط « الكورسيه » على بطنها حتى لا تنم عن الحقيقة . وأيا كان السبب ، فقد شاء القدر ان يتخلص ساكارد من هذا الجنين ، وأن تصبحزوجته المالكة الوحيدة لاراضى شاردن، وأن يصبح هو مالكا لمائتى الف فرنك ..

وكانت الفكرة التى استقر عليها رأيه للوصول الى الثراء العاجل، بسيطة وواضحة ومضمونة .. ذلك انه عرف من حرصه علىفتحاذنيه وعينيه والتلفت حوله ، أسرار معظم المشروعات المقترحة والتيتمت الموافقة عليها لتجميل باريس وجعلها عاصمة الدنيا .. ثم بدأ فى التنفيذ ..

اتفق مع زميل فى فندق دى فيل ، يدعى لارسونيه ، على أن

يفتتحا مكتبا للسمسرة العقارية . وحرص ساكارد على أن يجعل المكتب باسم لارسونيه ، على أن يمول هو عمليات شراء المنازل القديمة التى ستقع على جانبى الطرق والشوارع الجديدة ، ثم يبيعها بأسعار خيالية بعد ذلك ، مقابل نسبة معينة من الارباح لشريكه لارسونيه ..

وبدأ عمليته الاولى بشراء منزل زوجته رينيه فى شارع بيبنيير بمائة وخمسين ألف فرنك . وكان المشترى ـ اسما ـ هولارسونيه بطبيعة الحال : اما المشترى ـ فعلا ـ فكان هو ..

واستطاع بسهولة أن يقنع زوجته لكى تسلمه ثمن البيت ليستغله فى مشروعات مضمونة الربح .. بل لقد ضمن لها ضعف الايراد الذى كان المنزل يدره . وبهذه الوسيلة عاد المبلغ اليه ليستغله فى شراء منزلين آخرين على طريق جديد كان البدء فى تنفيذه قد أوشك ..

وفى خلال عام واحد بلغ ربحه من بيع المنازل الثلاثة ، بعد أن تم تنفيذ شق الشارعين الكبيرين ، نحو مليون فرنك ..

وبهذا المبلغ الضخم ، راح يشترى المزيد من المنازل ليبيعها بعد عام أو أكثر قليلا بأضعاف ثمنها .. ولم ينس بطبيعة الحال أن يستغل جانبا من هذا المبلغ فى شراء أصوات كثير من أعضاء لجان التثمين التى كانت بلدية باريس تكونها بين الحين والآخر .. بل لقد استطاع هو ـ بقوة المال ـ أن يصبح عضوا فى لجنة التثمين العليا ، وان يضم اليها اثنين من اصدقائه .. احدهما السيد دى موريل ـ الذى كان يطمع أن يزوج ابنته الحدباء من ابن ساكارد ، مكسيم ، بعد أن أصبح شابا يافعا . والثانى البارون جيرود ذو المكانة الكبيرة فى البلاط الامبراطورى ..

وبعد سنوات شعر أن باريس كلها قد أصبحت بين يديه ، وانها بمثابة بحيرة مليئة بالقطع الذهبية .. ما عليه الا أن يمد يديه ويغترف منها ما يستطيع

لقد مد نطاق أعماله الى شئون المقاولات لبناء المنازل والمنشآت الجديدة ، وشق المزيد من الشوارع والطرق . ولهذا السبب كون شركة مقاولات كبرى مع المقاولين الكبيرين « مينون وشاريير » . وكانت هذه الشركة وحدها تملأ خزانته الحديدية الضخمة فى مقره

كل صباح ، لكى تفرغ فى نهاية اليوم

وكان طبيعيا ، بعد هذا الثراء الطائل ، أن يشيد هـذا القصر الشبيه بقصور الاحلام ، وان يملأه بالخدم والاتباع والجياد المطهمة والتحف النادرة وكل ما يمكن ان يشتريه بالمال من رياش ومتاع .. !

وتعددت مشاريعه ، واتسع نطاق اعماله ، وزادت مساهمته فى كثير من الشركات ، ودفع مبالغ طائلة فى شراء آلاف الاسهم والسندات حتى جاء عليه اليوم الذى لم يعد يعرف فيه لامواله عدا .. وانما يعرف فقط أن خزانته تمتلىء كل صباح ، ثم تفرغ كل مساء بسبب حياة البذخ المجنون الذى راح يعيش فيه ويجعل منه أسطورة تتناقل أخبارها الصحف والمجلات

***

وكان مكسيم ، فى خلال هذه السنوات العشر ، قد عاد من مدرسته الداخلية وهو فى سن الرابعة عشرة ، فتى يافعا ، رقيقا ، خفيف الظل ، أقرب الى الفتاة منه الى الغلام . وقد أحبته رينيه منذ اللقاء الاول واخذت تعامله كأخ أصغر ، وتصحبه الى الحفلات، وتقدمه الى معارفها ، وتدلله ، وتتبادل معه أدق الاسرار ، وكأنما هما تلميذان مراهقان يتبادلان الاحاديث عن علاقاتهما الجنسية الطائشة ..

فلما بلغ التاسعة عشرة من عمره ، استقل بمسكن خاص ليقضى فيه لياليه الحمراء مع غانيات باريس ، ومع كل سيدة شابة يستطيع الظفر بها من بين صديقات زوجة أبيه ..

أما علاقته بوالده ، فكانت أيضا أقرب الى علاقة صديقين شابين، منها الى علاقة والد بابنه .. كانا كثيرا ما يلتقيان فى الملاهى والمقاصير الخاصة بالفنادق الكبرى .. وكان الابن فى كثير من الاحيان يتنازل عن بعض عشيقاته لابيه ، وكان الوالد يقدم للابن بعض العشيقات اللاتى يستهوينه .. !



الفصل الرابع

ليلة الحب

تركنا رينيه فى نهاية الفصل الاول واقفة فى ظلال الحديقة الشتوية، ترنو من وراء جدرانها البللورية الى مكسيم وهو يداعب الفتاة لويز الحدباء ـ مداعبة جنسية مكشوفة . وكانت هذه المداعبات قد اثارت فى اعماق نفس رينيه مشاعر جنسية غامضة ، جعلتها تدرك كنه هذا « الشيء المختلف » الذى كانت تهفو اليه ، دون ان تتبينه !

وكانت علاقاتها بزوجها فى السنوات الخمس الاخيرة، تكاد تكون كعلاقة شريكين فى قصر واحد .. لكل منهما حياته الخاصة ، ولا يكاد أحدهما يتدخل فى شئون غيره الا بالقدر اللازم للظهور معا أمام المجتمع الباريسى كزوجين مثاليين

ولم يكن هذا يعنى ان كلا منهما كان يكره الآخر أو يضيق به ، وانما كان يعنى ببساطة ان ساكارد آثر ان يترك الحرية الكاملة لزوجته الحسناء ، مطمئنا الى انها لن تلوث سمعته بفضيحة علنية .. وفى الوقت نفسه كانت اعماله الكثيرة تستغرق كل أوقاته الا اللحظات التى كان يختطفها مع هذه العشيقة او تلك فى بعض الاماكن الخاصة ..

وأفاقت رينيه من شعورها المتدفق ، وسارت الى جناحها الخاص حيث نامت نوما مضطربا . ولما استيقظت فى الصباح ، شعرت بتوعك صحتها .. فلزمت فراشها يومين كاملين ، أبت خلالهما ان تستقبل احدا ، حتى مكسيم !

وفى اليوم الثالث ، ارتدت ثوبا منزليا ناضرا ، وهبطت الى قاعة الجلوس حيث وجدت مكسيم فى انتظارها .. فلما رآها باسمة هادئة

السمت ، قال لها مداعبا :

ـ هل نعمت بهذه العزلة الطويلة مع وصيفتك سيلست ؟

فقالت رينيه بهدوء :

ـ نعم .. انها فتاة مدهشة . ان يديها دائمـا باردتان . وكان يكفى أن تضعهما على جبينى حتى تخف حرارته ويهدأ الصداع !

فصاح مكسيم ضاحكا :

ـ أهكذا ؟.. اذن ارجوك ان تعيرينى اياها عندما أقع فى الحب، حتى تضع يديها على قلبى فتطفىء لهيبه !

وعاد الاثنان الى مداعباتهما .. وفى الاصيل خرجا كالمعتاد الى غابة بولونيا ، وبعد أسبوع قالت لمكسيم :

ـ هل سمعت بالحفلة التنكرية التى ستقيمها الليلة الممثلة بلانش موللر ؟

فلما أومأ مكسيم برأسه ، قالت بلهفة :

ـ اننى أتمنى أن أحضرها يا مكسيم ..

فدهش مكسيم وقال :

ـ ولكن مركزك الاجتماعى يا زوجة أبى العزيزة لا يسمح لك بحضور مثل هذه السهرات الرخيصة ؟!

ـ أوه .. أرجوك .. لسوف اتنكر فى ثوب ساحرة ، وأضع على وجهى نقابا يخفى ملامحى عن الجميع .. أرجوك يا مكسيم .. اننى أكاد أموت شوقا لحضور حفلة من هذا النوع ..

ولم يسع مكسيم ـ كعادته ـ الا أن يلبى رغبة رينيه .. فلما أعلن عن موافقته ، وضعت كلتا يديها على ركبتيه وقالت :

ـ شكرا يا عزيزى .. لسوف نذهب فى ساعة مبكرة لارى المدعوين وهم يتوافدون .. وعليك ان تخبرنى باسمائهم ومراكزهم .. ولا شك اننا سنقضى سهرة ممتعة نضحك فيها كثيرا .. !

واتفق الاثنان على أن ينتظر مكسيم زوجة أبيه عند الباب الخلفى للحديقة الكبيرة ، بعد أن يستأجر مركبة تحملهما الى قصر الممثلة بلانش موللر

وفى الموعد المحدد ، طلبت رينيه من وصيفتها سيلست ان تبقى ن المخدع بدلا منها ، وان تتقمص شخصيتها ، وتتظاهر بأنها متعبة

متوعكة لا تريد أن تقابل أحدا .. وبعد أن ارتدت الملابس التنكرية، تسللت من باب الحديقة الخلفى حيث وجدت مكسيم ينتظرها فى مركبة مأجورة ..

وانطلقت المركبة فى طريقها الى قصر بلانش موللر .. وكان مكسيم جالسا فى مواجهة رينيه ، يدخن سيجارة فى سكون وضيق واضح .. ذلك ان اصرار رينيه على حضور هذه الحفلة التنكرية سوف يحرمه من مصاحبة بعض الفانيات اللاتى اتفقن معه على قضاء ليلة حمراء فى « كافيه دى ريش » بعد الانتهاء من حفلة بلانش موللر .. !

ولاحظت رينيه ما يبدو على وجهه من سمات الضيق ، فقالت :

ـ ماذا بك يا مكسيم ؟ هل تشعر بتوعك فى صحتك ؟

ـ لا .. اننى أشعر بالبرد !

ـ اذن ضع أطراف ثوبى على ركبتك ..

فابتسم فى مكر وقال :

ـ اننى غارق حتى رقبتى فى تلافيف ثوبك ..

ولما مطت شفتيها ، رأى أن يسترضيها ، فقال وهو يجذب نفسا عميقا من سيجاره حتى توهج بشدة ، وأضاء المركبة من الداخل بضوء أحمر وهاج :

ـ ما أجملك يا زوجة أبى العزيزة .. اننى سأضطر الى تشديد الحراسة عليك اذا شئت أن أعود بك سالمة الى بيت أبى !

فأرسلت ضحكة قصيرة وقالت :

ـ يالك من شيطان صغير .. !

ووصل الاثنان الى قصر الممثلة بلانش موللر .. وفى قاعة الرقص الواسعة ، جلسا جنبا الى جنب يشاهدان المدعوين وهم يتوافدون .. وكان معظمهم من الشخصيات الاجتماعية التى لاتفوتها مثل هذه الحفلات .. فقد كان بينهم السيد دى سافريه وزوجته ، والمركيزة دى سبانيه ، ومدام لورا دورينى وسوزان هافنر ـ عشيقة مكسيم فى ذلك الوقت ـ وكثيرات غيرهن ..

وانتهز مكسيم فرصة انشغال رينيه بالفرجة على ما يجرى

امامها ، وتسلل من جانبهـــا حيث التقى بمـــدام لورا دوريني ـ عشيقة أبيه ـ وكانت قد أشارت اليه من طرف خفي ليـــأتى اليها .. فلما أذعن لرغبتها ، قالت له هامسة :

ـ من هذه الحسناء التى معك الليلة يامكسيم ؟

ـ سوف أخبرك فيما بعد ! ..

فغمزت بعينيها وتمتمت :

ـ صيد جديد ؟! ..

ـ تقريبا ..

ـ هل ستأتى معنا الى سهرة كافيه ريش بعد الانتهاء من هذه الحفلة ؟

ـ سأحاول ..

ـ ستبدأ الحفلة فى الواحدة بعد منتصف الليل ..

ولمـا استدار لينصرف عنها ، قالت له بسرعة :

ـ سوف يكون والدك معنا ..

وفى خلال هذه الفترة ، كان السيد دى سافريه قد انتهز هـذه الفرصة وجلس فى المقعد الخالى بجوار رينيه ، وراح يهمس فى أذنها بعبارات الغزل الرخيص ، ويحاول أن يستدرجها لتضرب له موعد لقاء بعد انتهاء الحفلة . ولما رآها لاتستجيب له ، أخذ يشترك مع المدعوين فى الضرب بالايدى على الافخاذ ، والصياح بأعلى صوت مع النغمات الموسيقية الصاخبة ، مما جعل رينيه تشعر بأن رأسـها سينفجر من شدة الضجيج ..

ولمـا أقبل مكسيم ، قالت له وهى تتثاءب :

ـ هلم ننصرف .. انها حفلة سخيفة جدا .. !

وفيما هما ينصرفان ، اذا بالسيد دى ماسيه ، الفارق الى أذنيه فى حب رينيه ، يقبل الى قاعة الرقص .. فلما لمح مكسيم ، اسرع اليه وقال له دون أن يلتفت الى رينيه المقنعة الوجه :

ـ آه يا صديقى .. ان رينيه سوف تقتلنى بصدها .. لقدذهبت الليلة لزيارتها ، ولكنها أبت ان تسمح لى بمقابلتها زاعمة انها متوعكة الصحة ، ولكننى أعلم أنها تصطنع المرض حتى لاتقابلنى .. ارجوك ياصديقى ان تقول لها انك رأيتنى وانا ابكى بالدمع الغزير ..

فضحك مكسيم وقال :
ـ تأكد أيها العاشق الولهان أننى سأنقل لها رسالتك ..
وعند السلم ، قال لرينيه :
ـ ألم يلمس حديث العاشـــق شـــغاف قلبك يا زوجة أبى الحسناء ؟
فهزت كتفيها دون أن تجيب ..
ولما وصلا الى الشارع ، قالت فى صوت ملول :
ـ اذن سنعود الى البيت فى هذه الساعة المبكرة .. ؟!
فقال مكسيم :
ـ أتحبين أن نقضى ساعة أو أكثر فى نزهة ليلية بالمركبة ؟
ـ نعم .. هذا أفضل من العودة الآن الى البيت ..
وفى داخل المركبة أخذ الاثنان ـ كعادتهما ـ يتبادلان الاقاصيص والنوادر عن العلاقات العاطفية بين المعارف والاصدقاء ، حتى اذا مرت المركبة أمام مطعم بريبانت الشهير ، قالت رينيه فجأة :
ـ هل تعلم ان السيد دى سافريه طلب ان اتعشى معه الليلة فى هذا المطعم ؟

فضحك مكسيم وقال :
ـ لو أنك قبلت لندمت .. ان سافريه آخر من يحسن اختيار الطعام لسيدة مثلك ..
ـ لقد وعدنى أن يقدم لى عشاء مكونا من المحار والشواء ..
ثم أردفت قائلة ، وكأنما تذكرت شيئا :
ـ ان أسوأ مافى الامر أننى أشعر الآن بالجوع الشديد ..
فهتف قائلا :
ـ ان الامر بسيط جدا .. يمكننا ان نتناول العشاء معا ..
فترددت برهة ، ثم قالت :



ـ فى البيت ؟ ..
ـ فى البيت اذا شئت أو .. فى الكافيه لانجليه ..
ـ هذا أفضل ..
وهبط الاثنان أمام « الكافيه لانجليه » وأمسك مكســيم بيد رينيه ، وصعد معها الى الطابق الثانى حيث التقيا فى مدخله برئيس

الخدم ، وكان رجلا انيقا ، تبدو عليه سمات الوقار ..

قال له مكسيم :

ـ تشارلس .. أرجو ان تقوم على خدمتنا فى الغرفة البيضاء ..

وبدا التردد على وجه رينيه مرة أخرى ، فقال لها مكسيم :

ـ اذا كنت تخشين الانفراد معى فى هذه الغرفة ، فانى مستعد للعودة بك الى بيت أبى .!

فابتسمت وضغطت على يده ، ثم دخلت معه غرفة فاخرة يغلب عليها اللون الابيض ..

وما كاد الاثنان يستقران ، حتى اقبل تشارلس قائلا :

ـ ماذا يطلب السيد ؟ ..

فاستدار مكسيم الى رينيه وقال :

ـ ما رأيك ؟ .. هل نطلب المحار والشواء اللذين اقترحهما السيد سافريه ؟

ـ لا بأس ..

وبعد انصراف رئيس الخدم ، اخذت رينيه تفحص الغرفة بامعان ، وقد لاحظت وجود أريكة عريضة تشبه السرير الفاخر .. ولكن أهم ما أثار انتباهها مرآة كبيرة كتبت على أديمها ، بالاحجار الماسية ، عبارات الحب والغزل مع رسومات ترمز لاله الحب ، او للقلب المطعون بسهام الهوى ..

ولما أحضر الخادم الطعام ، قال له مكسيم :

ـ أتركنا الآن ، وسوف استدعيك بالجرس لتأتى لنا بالفاكهة والحلوى ..

ووقفت رينيه أمام نافذة تطل على الشارع الصاخب بحركة المرور ، وبأنغام الاوركسترا المتصاعدة من المقهى فى الدور الاول ثم عادت الى المائدة ثانية

وبدا وجهها متوهجا بالاثارة ، وهى تجلس الى المائدة الصغيرة قائلة :

ـ ان أنغام الاوركسترا تتناسب مع هذا اللون من الطعام ..

وقال مكسيم حين رآها تأكل بشهية :

ـ يبدو أنك كنت جائعة جدا ..

ـ أترى هذا ؟ .. ماذا كنت تتوقع بعد هذه الساعة المملة المرهقة التى أمضيناها فى تلك الحفلة الراقصة السخيفة . لشد ما أرثى لك ان كان هذا هو عالمك الذى تعيش فيه !

فهز مكسيم كتفيه وقال :

ـ ليس أمامى عالم آخر استطيع الانتقال اليه ..

ـ وسيلفيا .. ألم تسأمها بعد ؟

ـ لقد بدأت فعلا أبحث عن غيرها .. !

وكان مكسيم بعد أن فرغ من طعامه البسيط ، قد وقف يخدم رينيه بنفسه حتى يتجنب استدعاء تشارلس مرة أخرى . وهكذا وقف والمنشفة على ذراعيه يقدم اليها الملاعق والشوك والسكاكين النظيفة لكل صنف من اصناف الطعام ، ويصب لها فى الكأس النبيذ الابيض غير الممزوج بالماء ..

وقال لها فى معرض الحديث :

ـ هل قال لك السيد دى سافريه شيئا جعلك تبدين غاضبة عندما عدت اليك فى تلك القاعة ؟ هل قال لك مثلا انك غير جميلة ؟

فتمتمت قائلة :

ـ اوه ؟ انه رجل ثقيل الظل جدا .. ما كنت اظن ان رجلا مثله ـ كان يبدو دائما فى بيتى مهذبا رقيقا ـ ينحدر الى هذا المستوى الوضيع ، ويسمعنى الفاظا لا تقال الا للبغايا .. الواقع انكم ـ معشر الرجال ـ مخلوقات عجيبة غريبة .. !

وبعد برهة صمت استطردت تقول :

ـ عندما كنت أراك فى الطريق مع سيلفيا ، كنت اتخيل انك ذاهب معها الى حفلات راقية ، وسهرات ممتعة ، وولائم من النوع الذى نشاهده فى الصور التاريخية الملونة .. لم يخطر ببالى ابدا انكما تذهبان الى مثل هذه الحفلة التنكرية التى رأيتها اليوم ، والتى كان معظم المدعوين والمدعوات اليها من حثالة المجتمع الراقى !

وحاول مكسيم أن يحتج ، ولكنها رفعت يدها لتسكته بينما أردفت تقول :

ـ ما أبعد الفرق بينى وبينكم .. اننى ، السيدة الطاهرة ، ارتكب الخطايا أحيانا ، ولكن بالخيال ، وعندما يستبد بى الشعور بالملل ..

الا ان خيالى مهما سف ، فانه لا ينحدر الى مهاوى حقائقكم !

وبلهجة جادة ، اختتمت حديثها قائلة :

ـ يبدو ان للثقافة دورها الكبير فى هذه الاحوال ..

ولما فرغت من الطعام ، جلس مكسيم بجانبها ليشترك معها فى شرب الشمبانيا ، ويتبادل واياها الفكاهات والنوادر . وكان وجهها يزداد احمرارا وتوهجا كلما مرت الدقائق على خلوتهما .. وكانت انغام الاوركسترا تنساب من النافذة وترفرف فى جو الغرفة الخافت الضوء ، وتملأ نفس رينيه باحساسات غامضة بهيجة

ونهضت أخيرا ، وسارت بخطوات خفيفة الى النافذة ، وراحت تطل منها ـ مرة أخرى ـ على الشارع

واقبل مكسيم اليها ليعود بها الى داخل الغرفة .. ولكنه وقف بجانبها برهة مفكرا ، ثم ابتسم وهو ينظر الى نافذة نصف مغلقة فى نفس الطابق .. انها نافذة الغرفة التى اعتاد أبوه ان يقضى فيها بعض سهراته الحمراء .. ترى كيف يكون الامر لو أن أباه كان غارقا فى تلك اللحظة بين ذراعى احدى عشيقاته ؟!

وعادت رينيه الى داخل الغرفة حيث كان الخادم يضع الحلوى والفاكهة ، الا انها قالت له :

ـ لا .. لا .. اننى لم أعد فى حاجة الى مزيد من الطعام . ارفع هذا كله واحضر قدحا من القهوة ..

واطاع الخادم الامر ، ولم يلبث ان عاد بآنية القهوة ، وراح يصب منها فى الاقداح .. ولما تلكأ فى ذلك ، قالت رينيه لمكسيم فى توتر عصبى :

ـ اطلب منه أن ينصرف ولا يعود ..

وخرج الخادم ..

وتنهدت رينيه بارتياح ، وشرعت تحتسى القهوة فى تمهل .. حتى اذا فرغت منها ، نهضت ووضعت نظارتها الصغيرة الانيقة على عينيها وأخذت تقرأ العبارات الغرامية المحفورة على اديم المرآة بالاحجار الماسية ..

« ارنست وكلارا .. وتحتهما قلب يبدو كالمدخنة . آه هذه عبارة أفضل : اننى احب الرجال لانهم أطوع فى الحب من الكلاب

الامضاء لورا .. ترى أهى لورا دورينى يا مكسيم ؟ آه .. يبدو أن عاشقة رسمت نفسها هنا على شكل دجاجة تدخن غليونا .. ترى من يكون هذان العاشقان فيكتور واميليا .. آه .. ها هو ذا اسمك يا عزيزى .. مكسيم اننى أحب .. »

وكان مكسيم جالسا على حافة الاريكة العريضة ، بالقرب من رينيه ، وهى واقفة أمام المرآة . فلما ذكرت اسمه ، أمسك بيديها فى سرعة جعلتها تستدير بوجهها نحوه مندهشة .. وكان فى تلك اللحظة يقول :

ــ رينيه .. أرجوك .. لا تقرئى بقية العبارة ..

فهزت كتفيها ، وضحكت قائلة :

ــ لماذا ؟.. السنا صديقين حميمين لا يخفى احدنا عن الآخر سرا ..

ــ نعم .. نعم .. ولكن . ليس الليلة .!

وحاولت ان تجذب يدها من يديه ، ولكنه تشبث بهما .. والتمعت عيونهما عندئذ ببريق الشعور بالخجل .. وفجأة ركعت على ركبتيها فوق الاريكة العريضة أثناء محاولاتها للتخلص منه .. وفيما كان مكسيم يطوقها بذراعيه ، اذ هى تغتصب ضحكة لتحقق شعورها بالحرج ، ثم تهمس قائلة :

ــ لا .. لا .. دعنى .. ارجوك ..

ولم تقل أكثر من هذا ..

***

ولما عادا للجلوس جنبا الى جنب على الاريكة ، قال مكسيم فى صوت خافت :

ــ لم يكن ثمة مفر من أن يحدث هذا عاجلا أو اجلا ..!

وظلت هى مطرقة الرأس من فرط الشعور بالخجل ، بينما عاد مكسيم يقول :

ــ هل كان أحدنا يتصور أن يحدث هذا ؟.. لقد أخطأت حين اغلقت الباب من الداخل بالرتاج ..!

الفصل الخامس

حديث عن المال

استيقظت رينيه فى اليوم التالى ، بعد نوم عميق خال من الاحلام .. وبعد أن أمرت وصيفتها سيلست باشعال النار فى المدفأة ، وقررت أن تقضى يومها كله فى مخدعها .. هكذا كان شأنها دائما فى الاوقات العصيبة ، كانت تحب أن تلوذ بمخدعها الفاخر بعيدا عن الناس وعن مشاكل المجتمع كلما ضاقت النفس بهذا كله !..

وعند الظهيرة ، طلب زوجها ساكارد الاذن بمقابلتها بعد ان انتظر عبثا ان تحضر الى مائدة الافطار . وكادت ان ترفض مقابلته ، وهى تشعر بتوتر عصبى شديد ؛ الا انها تذكرت ان محلات « ورمز وشركاه » كانت قد أرسلت فى اليوم السابق « فاتورة » تطالب فيها بمائة وستة وثلاثين ألف فرنك ثمن ملابس فى الاسابيع الاخيرة . وخطر ببالها ان زوجها يريد مقابلتها ليخبرها كعادته دائما انه دفع المبلغ ، وانه جاء اليها بالايصال

وفيما هى تغير ملابسها ، راحت ذكريات ما حدث فى الليلة الماضية تتوالى على ذهنها .. الا أنها لم تلبث أن هزت كتفيها وتحررت منها ، ثم هبطت الى زوجها فى قاعة الجلوس الفاخرة. وكان جالسا بجوار المدفأة الضخمة ، وقد بدا وجهه مربدا وعيناه حمراوين ، وانحنى على يدها يقبلها كالمعتاد ، ثم سألها بصوت ينم عن القلق :

ــ هل انت بخير يا عزيزتى .. أرجو أن يكون الامر صداعا خفيفا ومعذرة اذا جئت الان لازعجك قليلا بالحديث عن الشئون

المالية .. ولكن المسألة اليوم خطيرة

واختلس نظرة جانبية الى زوجته ليرى تأثير هـذه المقدمة عليها .. فلما رأى وجهها لا ينم عن أى اهتمام ، تناول من جيب ردائه فاتورة حساب محلات « ورمز » ، وقال :

ــ لقد وجدت هذه الفاتورة على مكتبى أمس . ومما يؤسفنى اشد الاسف اننى عاجز عن تسديد قيمتها فى الوقت الحاضر ..

وهنا ارتسمت الدهشـة البالغة على وجه رينيـه ، فابتسم واستطرد يقول :

ــ أنت تعرفين ياعزيزتى أننى لم أحاول يوما ان أعتب عليك لاسرافك الشديد ، فيما يختص بملابسك ، ولكن ليس من شك فى ان انفاق نحو مائة وخمسين ألف فرنك على الملابس فى شهرين أو ثلاثة يعتبر اسرافا بالغا . ولو كان فى مقدورى دفع هذا المبلغ الان ، لما صدرت منى كلمة واحدة فى هذا الصدد ..

فقالت رينيه ، وهى تكتم استياءها الشديد :

ــ حسنا جد .. اعطنى الفـاتورة ، وسـوف أسـدد قيمتها بنفسى .. !

ولكن ساكارد أسرع يقول :

ــ اخشى ان تكونى قد أسأت فهم مقصدى .. اننى لا أعنى ان حالتى المالية قد ساءت الى حد خطير ، ولكننى أقول ان الامور مضطربة بعض الشيء فى الوقت الحاضر .. !

ثم راح يسرد عليها تفاصيل طويلة مملة عن حالته المالية ، وعن المشروعات الكثيرة التى يقوم بها فى وقت واحد ، وعن الامـوال التى يضطر الى دفعها هنا وهنـاك دون أن يحصل على ثمـرة عاجلة .. ولكنه كف عن الحديث حين رأى أمارات الملل واضحة على وجهها ، ثم قال :

ــ اننى التمس المعـذرة مرة أخرى يا عزيزتى بسبب ازعاجك بهذه التفاصيل ، فأنت تعلمين اننى أدفع لك فـوائد ثمن المنزل الذى بعته عقب زواجنا ، وفوائد ثمن ضيعة سولان . ولعـلك تذكرين أننـا اتفقنا على أن تكون هـذه الفوائد هى مصروفك الخاص !!

على أن الحقيقة كانت غير هذا تماما .. لقد اتضح ان ساكارد استغل ثمن الضيعة وثمن المنزل فى دفع القسط الاول من ثمن القصر ، وقدره نصف مليون فرنك .. أما الثمن الكامل للقصر ، فكان مليونى فرنك،أى كان على ساكارد أن يسدد مليونى ونصف مليون فرنك فى خلال ثلاثة أعوام .. وكذلك كان المتاع الفاخر كله مشترى بالتقسيط القصير الامد ..

وقالت رينيه :

ــ ان كل ما أعرفه ياعزيزى أرستيد اننى مدينة لك بأموال طائلة ، واننى لن أستطيع أن أسدد هذا الدين يوما ..

فصاح ساكارد قائلا ، وهو يقلب الجمرات فى المدفأة بالسيخ :

ــ ما هــذا الذى تقولين ياحبيبتى ؟ .. اسمعى .. اننى بايجاز شديد تعرضت لخسائر مالية فادحة فى الاسابيع الاخيرة بسبب الهبوط المتوالى فى أسعار الاسهم والسندات ، وبسبب توقف بعض المشروعات العمرانية مما جعلنى عاجزا عن اتمام بعض الصفقات الرابحة ..

ولم يشأ أن يقول لها انه عجز فى الاشهر الاخيرة عن بيع بعض المنازل التى اشتراها عن طريق مكتب لارسونيه للسمسرة العقارية ، وأنه مضطر الى بيع هذه المنازل بخسائر فادحة بعد أن توقفت مشروعات شق الشوارع المارة بها ..!

والواقع أن ساكارد كان عندئذ قد بلغ المرحلة التى كان يحتم عليه فيها ان يحقق كل يوم معجزة حتى لا يعلن أفلاسه .. !

انه يعيش فى منزل ثمنه مليونا فرنك ، وفيه متاع ورياش لا يقل ثمنهما عن مليونين أيضا ، ونفقاته اليومية لا حصر لها .. بل انه هو نفسه لا يستطيع أن يحصرها مهما حاول . ورغم هذا كله فقد كان يعيش على الدين ، مثله فى ذلك مثل معظم رجال الاعمال الكبار الذين يبدون أمام الناس وكأنهم أصحاب ملايين.. بينما هم فى الواقع غارقون فى ديون تقدر بالملايين ..

وكانت فوائد هذه الديون تلتهم ــ أولا بأول ــ جميع الارباح الطائلة التى تدرها مشروعاته العديدة .. هذا فضلا عن حياة البذخ الجنونى التى يحياها . ومن ثم كان يسير على أرض

زلقة ، ويقفز فوق المهاوى متجنبا « المطبات » بقدر الامكان .. فيسدد ــ مثلا ــ صكا قيمته خمسين الف فرنك ، ويعجز عن دفع مرتب سائق مركبته بضعة أشهر متوالية !

ومما زاد موقفه حرجا ، أن المقاولين الكبيرين مينونوشارير خدعاه فى النهاية وقررا فسخ عقد الشركة على أن يقوم هــو بشراء نصيبهما ، أو يشتريا هما نصيبه .. ولما كان مدينا لهما بمبالغ كبيرة ، فقد عجز بطبيعة الحال عن شراء نصيبهما ،وهكذا ابتلعت ديونهما عليه نصيبه ،واستقلا بالشركة كلها دونه ..

وقالت رينيــــه أخيرا ، بعــــد ان أدركت أنه فى موقف مالى عصيب :

ــ ما دمت تعانى هذه الازمة المالية ، فلماذا اشتريت لى العقد والتاج الماسيين اللذين كلفاك أكثر من ثمانين ألف فرنك ؟.. اننى فى غير حاجة الى هذه الحلى ، وانى ألتمس اذنك لبيعهما وتسديد جزء من حساب محلات ورمز ..

فهتف ساكارد ، وهو يرفع سيخ المدفأة كأنما يهدد به عــدوا مجهولا :

ــ لا .. لا .. حذار أن تفعلى شيئا من هذا القبيل ، فانك اذا ظهرت غدا فى حفـــلة وزير الخارجية بدونهما ، فسوف تنتشر الشائعات عن سوء مركزنا المالى ..

ثم غمز بعينيه وقال باسما :

ــ اننا معشر رجال الاعمال كالنساء الجميلات .. نثير الاعجاب والحسد ويتمنى الجميع أن نتعرض للفضائح ثم السقوط .. !

وفجأة قالت رينيه :

ــ ولكنك سددت ديون لورا دورينى كما يعرف الجميع ..

فاتسعت الابتسامة على شفتيه ، وقال :

ــ هذه « ضربة معلم » انقذت بها نفسى من الافلاس فى آخر لحظة !

وكان قد انتهز فرصة الحالة المالية السيئة التى وصلت اليها وصيفة البلاط الامبراطورى مدام دورينى ، فقرر أنيقوم بمناورة مالية يرفع بها شأنه أمام جميع دائنيه . ومن ثم تقدم وعقــد

سلسلة من الاتفاقيات الفردية مع دائنى مدام دورينى ، وسدد عنها ديونها البالغة أربعمائة ألف فرنك ـ بعد أن جعلها تهبط الى النصف بالاتفاق مع الدائنين ـ واشترى لزوجته العقد الماسى والتاج خلال هذه الصفقة . وظهر أمام المجتمع الباريسى بأنه العشيق الجديد لمدام دورينى .. ومن ثم راحت الايدى من مختلف القطاعات تمتد اليه بالاموال والمساعدات ، كما أصبح يستقبل فى بورصة الاوراق المالية كملك غير متوج ..

ولكن الى متى يظل على هذا الحال ؟.. الى متى يظل قادرا على وضع « طاقية » هذا فوق راس ذاك ؟

وعادت رينيه تقول ، وهى لاتخفى قلقها الشديد بسبب فاتورة محلات « ورمز » :

ـ ولكن أراضى منطقة شاردن تبشر بربح كبير فى المستقبل ـ كما قلت ـ فماذا يمنع مكتب سمسرة لارسونيه من اقراضى مبلغ مائة وستين ألف فرنك بضمان هذه الاراضى ؟

وأسرع ساكارد مستديرا بوجهه الى المدفأة حتى لاترى رينيه نظرة النهم والجشع التى تألقت فى عينيه . لقد أحس بقلبه يخفق فى عنف حين سمعها تنطق بهذه العبارة .. ذلك انه كان يهدف من وراء هذا الحديث الطويل عن الشئون المالية الى دفعها رويدا رويدا نحو هذا الفخ .. نحو ارغامها بطريقة خفية على بيع ممتلكاتها فى منطقة شاردن بأبخس ثمن ممكن ، لكى يبيعها بعد عام واحد بأسعار خيالية .. !

ان أراضى منطقة شاردن كانت حتى ذلك الحين تعتبر أراض زراعية .. ولكنها بعد عام ، كان من المؤكد أن تصبح أراض للبناء حينما يتم شق الطريق الهائل الذى يصل بين قلب العاصمة وقلعة شاردن العسكرية .. وبمعنى أوضح ، كانت الارض التى سيشتريها بالفدان ، ينوى أن يبيعها بعد عام بالمتر !

ورغم ابتهاج ساكارد بنجاح خطته ، فقد آثر أن يتريث والا يقدم لزوجته من المال الا قليلا قليلا حتى يظفر فى النهاية بأراضى شاردن بأقل ثمن ممكن .. ومن ثم قال :

ـ أتعتقدين ياعزيزتى أننى لم أتخذ هذه الخطوة فعلا .. لقد

ذهبت الى لارسونيه أمس بمجرد رؤيتى لفاتورة ورمز ..
وهنا هتفت رينيه فى لهفة قائلة :
ــ وهل وعد باقراضى مائة وستين الف فرنك ؟
فرد زوجها بلهجة احتجاج :
ــ ما أشد سذاجتك ياعزيزتى ؟ ان مائة وستين الف فرنك ليست بالمبلغ الصغير الذى يمكن الحصول عليه نقدا فى يوم وليلة .. ان لارسونيه صديق عزيز ، وعلى استعداد لاسداء اية خدمة لنا ، ولكن موارده من الاموال النقدية محدودة ..
وقبل أن تسأله زوجته عن المبلغ الذى يمكن أن يدفعه لارسونيه، استطرد ساكارد قائلا :
ــ ان لارسونيه وعد بالحصول على خمسين الف فرنك من أحد المولين .. وذلك المول يأخذ عادة فوائد باهظة ، أى أنك لابد أن تكتبى له كمبيالة بمبلغ ثمانين الف فرنك تسدد فى خلال ثلاثة اشهر !
وهنا صاحت رينيه قائلة :
ــ ثمانون الف فرنك ؟ هذه سرقة واضحة .. هل تنصحنى بارتكاب هذه الحماقة ؟
فقال باقتضاب :
ــ لا .. ولكن اذا كنت فى أشد الحاجة الى المال ، فانى لن أمنعك من اتمام هذا القرض ..
ثم نهض تاركا اياها فى حالة من الحيرة البالغة ، اذ كانت تنتقل بعينيها من وجهه الى الفاتورة الموضوعة أمامها ، وبالعكس ، دون أن تدرى ماذا ينبغى أن تفعل ..
وفجأة قالت :
ــ يبدو انه لا مفر لى من كتابة هذه الكمبيالة على الفور ، لاننى اذا لم أفعل ، فسوف أمضى اليوم كله حائرة قلقة مصدعة الرأس ، لم ينته الامر الى كتابتها .. فلماذا أتأخر ؟ !
ثم مدت يدها لتشد جرس الخدم ، ولكن زوجها قال لها بسرعة :

ــ هل تريدين كمبيالة ؟
ــ أجل ..
ــ لاداعى لاستدعاء أحد الخدم .. سوف آتيك بواحدة من مكتبى ..

وتناولت رينيه الكمبيالة ، وأمسكت بالقلم الذى قدمه اليها ، وانحنت لتوقع باسمها .. وفيما هى تفعل هذا ، نظر زوجها اليها باحساس مفاجىء من الرغبة والاشتهاء جعله ينحنى ويقبل عنقها العارى المرمرى فى حرارة ..

وجفلت رينيه ، ولكنها رفعت رأسها واغتصبت ضحكة قصيرة وهى تذكر قبلات الليلة الماضية .. وقالت وهى تقدم اليه الكمبيالة :

ــ ماذا دهاك يا أرستيد ؟ هل ..

فضمها الى صدره فى لهفة عارمة مفعمة بالاشتهاء المفاجىء وهو يقول :

ــ ما أجملك ياحبيبتى ؟

فمطت شفتيها كأنما تقول له : « منذ متى ترانى جميلة مشتهاة ؟! »

وضغط على يدها مصافحا قبل أن ينصرف ، ووعدها بأن يأتى اليها بالخمسين الف فرنك مساء ..

***

وأمضت رينيه بقية اليوم غافية بجوار المدفأة .. وكأنما تحاول بالنوم أن تتبلد مشاعرها وتنسى متاعبها ..

وقبيل الغروب ، أعلنت وصيفتها سيلست عن حضور مدام سيدونيه ــ أخت ساكارد ــ ورغم أن رينيه لم تكن فى حالة تسمح لها باستقبال أحد ، الا انها رأت أن تأذن لمدام سيدونيه بالدخول عسى أن تجد لديها حلا لضائقتها المالية ..

ودخلت مدام سيدونيه بملابسها السوداء ، وسمتها القبيح ، ووجهها الكالح الثعلبى .. وراحت كعادتها تتظاهر بالعطف الشديد على زوجة أخيها الحسناء ، وتحيطها بعبارات الحب والاشفاق والتمنيات لها بالسعادة والهناء ..

ولما سألتها أخيرا عن سر قلقها وأحزانها ، قالت رينيه :
ـ انني فى ضائقة مالية شديدة يامدام سيدونيه ..
فقالت المرأة وهى تقترب بسرعة من رينيه :
ـ انني تحت أمرك ياحبيبتى .. كم تريدين ؟
ـ مائة الف فرنك لأسدد فاتورة محلات ورمز ..
وقالت المرأة بكل هدوء :
ـ ان المائة الف فرنك مبلغ يمكن أن تحصلى عليه بسهولة ما دام فى مقدورك أن تدفعى ثمن الحصول عليه .. كل شيء بالثمن ياعزيزتى .. !
فقالت رينيه متجاهلة المعنى الخفى فى عبارة المرأة :
ـ هل تعرفين أحدا يمكن أن يقرضنى هذا المبلغ ؟
ـ أعرف عشرة .. اطمئنى .. اننى مشفقة عليك ، وأحبك كأنك ابنتى .. وانى لشديدة السخط على أخى الذى يترك زهرة ناضرة مثلك ليجرى وراء بغى وضيعة مثل لورا دورينى ، وينفق عليها مئات الآلاف من الجنيهات . اننى لن أدهش اذا قلت لى انه رفض أن يدفع لك هذا المبلغ .. انه رفض دفعها .. أليس كذلك ؟! .. رفض ان يدفع مبلغا بسيطا كهذا لزوجة جميلة فاتنة يتمناها ملك أو امبراطور .. اننى شخصيا أحبك كما لو كنت رجلا يحب غادة فاتنة .. واننى لا أكاد أطيق الابتعاد عنك ثلاثة أيام كاملة .. ولست أدرى كيف فقد أخى بصره وبصيرته فلم يعد يقدر هذه الوردة اليانعة فى قصره .. !

وكانت رينيه تصغى الى هذه الثرثرة فى تراخ واحساس متبلد .. فلما وصلت المرأة الى مرحلة التغزل فى جمالها ، فتحت عينيها وابتسمت ، وهى تذكر أن عشاقها العديدين لم يستطع احدهم يوما أن يتغزل فى جمالها بمثل هذه الحرارة !
ولمحت مدام سيدونيه هذه الابتسامة ، فأردفت تقول وهى تنهض بخفة لتنصرف :
ـ حسنا .. اتفقنا .. يبدو اننى أسرفت فى الحديث ونسيت أنك تعانين من الصداع .. سوف تأتين غدا .. أليس كذلك ؟

وفى مسكنى الصغير سوف نتحدث عن المبلغ ، عن طريقة الوصول الى رجل يقرضه لك .. هل تفهمين ؟ اننى أريد ان أراك سعيدة دائما ..

فقالت رينيه ، وهى فى حالة من الاسترخاء وتبلد الشعور ، بحيث لم تكن تفهم كل ماكانت تقصده المرأة :

ــ نعم .. سوف أزورك غدا . واعتقد أن محلات ورمز سوف تقبل مبلغا تحت الحساب ، ولن تزعجنى بالمطالبة مدة أسبوعين على الاقل . وعندما يحين موعد الدفعة الثانية سأحاول أن أجد للامر حلا .. والآن ، أرجو أن تعفينى من الحديث عن المال .. اننى أريد أن استريح ..

ولاح التردد على وجه مدام سيدونيه ، وكأنما نسيت أن تقول شيئا .. ومن ثم قالت وهى تخرج من حقيبتها الجلدية الكبيرة قطعة صابون زكية الرائحة :

ــ لقد جئت أساسا لأقدم لك عينة من صابون جديد رائع له رغوة ناعمة زكية الرائحة دهنية الملمس . انمخترع هذا الصابون شاب جذاب لاينقصه الا راس المال ليتوسع فى هذه الصناعة .. حسنا حسنا .. سأترك هذه العينة لتجربيها .. فربما تساهمين فى هذا المشروع المربح ..

واتجهت نحو باب الغرفة لتنصرف ، ولكنها توقفت واخرجت من الحقيبة حزامانسائيا مطاطا وقالت :

ــ وهذا الحزام صناعة مبتكرة أيضا .. انه يجعل وسطك نحيفا .. سوفاتركه لك أيضا لتجربيه ان ثمنه الف فرنك فقط ، والأن طابت ليلتك ياعزيزتى .. لسوف انتظرك غدا ، أريد أن أمسح الدموع عن عينيك الجميلتين ! ..

وانسابت من الغرفة كالطيف ..

***

وفى مساء اليوم التالى ، بدت مدام ساكارد فى حفلة وزارة الخارجية ، رائعة بملابسها الفاخرة وحليها الثمينة . وكانت محلات ورمز قد قبلت الخمسين ألف فرنك كدفعة أولى تحت

الحساب . ومن ثم كان وجه رينيه يتألق بالابتسام والاطمئنان ، كما تألقت الماسات حول عنقها وفوق راسها ببريق أبلغ من كل كلام ..

وظل جمالها ، ورواؤها ، وابهتها ، موضع أحاديث المدعوين طيلة الحفلة .. ومن ثم غادرها ساكارد فى نحو الواحدة بعد منتصف الليل وهو مطمئن الى أن مركزه المالى قد ازداد قوة ومتانة بظهور زوجته على هذا النحو الفاخر .. وكان قد أوصى ابنه مكسيم بأن يصحب رينيه الى البيت بعد انتهاء الحفلة ..

أما هو ، فقد أسرع الى مسكن مدام لورا دورينى لينتهى من اتمام صفقة جديدة ..

وكان مكسيم طيلة الحفلة ملازما لخطيبته لويز دى موريل .. وقد جلس الاثنان فى ركن من القاعة الكبرى يتبادلان الدعابات والتعليقات الجنسية عن المدعوين والمدعوات ، ولايجدان حرجا فى تبادل القبلات واللمسات بجرأة واستهتار ..

ولما أرادت رينيه الانصراف ، استدعت مكسيم اليها ، واعتمدت على ذراعه ، وركبت معه المركبة الفاخرة التى كانت فى انتظارهما ، ثم قالت له وهما فى الطريق الى البيت :

ـ هل تعجبك هذه الصبية الحدباء الى هذا الحد ؟

فضحك وقال :

ـ انها خفيفة الظل الى حد كبير .. ولو انك سمعت تعليقاتها الفكاهية على ملابس بعض المدعوات ، لما تمالكت نفسك من الضحك المتواصل ..

فلوت رينيه شفتيها وقالت :

ـ ارجو الا تكون قد عرضت بى أيضا ..

فبدت الدهشة على وجه مكسيم واسرع يقول :

ـ اهذا معقول يازوجة أبى العزيزة ..

وصمت فجأة ، وكأنما تذكر أن ماحدث بينه وبينها فى مطعم كافيه لانجليه لم يعد يبيح له أن يدعوها بهذا الاسم ..

وران الصمت على الاثنين حتى توقفت المركبة أمام المدخل الفاخر للقصر ..

وفيما كان مكسيم يهم بالانصراف ، أمسكت رينيه بيده وقالت له باسمة :

ـ ألن تأتى معى ؟ .. لاشك أن سيلست قد أعدت لى شيئا من الطعام

وهز كتفيه ، وصعد معها الى مخدعها ـ كما كان يفعل فى أوقات كثيرة سابقة ـ وهناك ، فى المخدع ، لم تجد رينيه شيئا من الطعام ، بل ولم تجد سيلست أيضا ..

كانت الوصيفة قد آوت الى فراشها ..

وأوقدت رينيه شمعدانا فضيا بثلاثة أفرع .. وكانت يداها ترتعدان قليلا ، وهى ترفع الشمعدان وتقول متحدثة عن سيلست :

ـ يلوح أن هذه المخلوقة الحمقاء لم تفهم تعليماتى .. ماذا أفعل الآن وأنا لم أتعود قط على خلع ملابسى بمفردى ؟

فقال مكسيم ببساطة :

ـ سأقوم أنا بدور سيلست

وهنا وضعت رينيه الشمعدان على منضدة ، ثم استدارت وألقت بنفسها بين ذراعى مكسيم ، ورفعت شفتيها الى شفتيه ، وغابت معه فى قبلة طويلة ..





الفصل السادس

سعير الحب

أخذ مكسيم ـ بعد أن أفاق الاثنان من القبلة ـ يساعدها على خلع ملابسها ببراعة ودقة ، وكأنه وصيفة مدربة .. ولم تلبث أن طوقته بذراعيها ، ثم حملته ضاحكة ، وغاصت به فى الفراش الكبير ..

ولم تنس أن تطفىء شموع الشمعدان ..

وفى الصباح ـ فى الساعة السادسة ـ وبعد ليلة من الحب الجامح المسعور ، استعد الشاب للانصراف . ودست رينيه فى يده مفتاح الباب الخلفى لجناحها الخاص ، ثم جعلته يقسم على العودة اليها ، متسللا ، كل ليلة ..

وفى ضوء الصباح ـ خارج القصر ـ راح مكسيم يسير مترنحا ، ذاهلا ، ولكنه لم يلبث أن استسلم لهذا الوضع كعادته دائما فى الاستسلام لكل شىء يعجز عن مقاومته ، ثم قال لنفسه مواسيا :

ـ حسنا .. ليكن مايكون . انها هى التى تريد هذا . ولاأنكر انها جميلة جدا ، وناضجة الانوثة ، وأشهى الف مرة من جميع اللاتى عرفتهن !

***

وأخذ مكسيم يأتى الى مخدعها من الباب الخلفى كل ليلة .. وكانت رينيه تنتظره عادة بالقرب من الحديقة الشتوية ، ثم تصحبه الى غرفة الجلوس فى مدخل جناحها الخاص .. وبعد أن تغلق بابها من الداخل ، يشعر الاثنان بالامن الكامل ، لان أحدا لايستطيع ان يفاجئهما ..

وكانت سيلست ، وصيفتها الخاصة ، هى الوحيدة التى تعرف سر غرامها المستعر .. ولكنها كانت تزم شفتيها على هذا السر ..

وشرع الاثنان يشربان كئوس الحب الجنسى فى نهم مروع مسعور .. وكان يحلو لرينيه أن تمارس هـذا الحب فى مختلف أركان جناحها الفاخر .. فى غرفة الاستقبال ، فى الفراش الكبير ، فى حمامها الذى لم يكن له مثيل فى قصر الامبراطور .. !

وكانت دائما تهمس له وهى بين ذراعيه :

ـ هذا هو الشىء المختلف الذى كنت اهفو اليه يامكسيم .. لقد عثرت عليه أخيرا .. ومن ثم بدأت أشعر بمتعة الحياة .. !

وصارح الاثنان ، أحدهما الآخر ، بأن الحب كان يربط بينهما منذ سنوات دون أن يجرؤ أحدهما على الاعتراف به ..

ولم تكتف رينيه بالليالى فقط ، وانما اضافت اليها ساعات الصباح أيضا .. وكانت تعتذر عن مقابلة أحد باصطناع المرض ، بينما كان مكسيم يقول لسيلفيا ومثيلاتها انه مشغول بكتابة مذكراته ، وانه يذهب الى مكان منعزل ليتفرغ لهذا العمل ..

وفى ساعات الصباح الباكر ، كانت رينيه تبدو فى أشعة الشمس المتسللة من فرجات الستائر الحريرية بغرفة الاستقبال ، المغلقة من الداخل ، أو فى غرفة الجلوس ، أو فى المخدع ، كأنها حورية عارية تعيش فى جنة من صنع يديها ..

وتمادت رينيه فى سعير الحب .. وقررت أن تمارسه داخل الحديقة الشتوية .. بين الازهار العاطرة ، والاشجار الوارفة ، والتماثيل المرمرية العارية ..

ومن ثم فوجىء مكسيم ذات ليلة وهى تمضى به الى هـذه الحديقة الشتوية .. بين الازهار العاطرة ، والاشجار الوارفة ، ومعها سجادة من فراء الدب الاسود ..

ووضعت السجادة الفراء تحت خميلة وارفة الظلال ، وراحت تعب فوقها ، مع مكسيم ، من خمر الحب الملتهب مما جعل جسديهما يتخدران ، وحواسهما تتبلد من فرط الاسراف ، ورأسيهما يدوران ..

وفى ذات ليلة باردة ، شعر مكسيم وهو يدخل الحديقةالشتوية الحارة انه يوشك أن يختنق .. لقد كان الانتقال من الجو القارس فى الخارج الى الجو الحار فى قلب الحديقة الشتوية ، كالانتقال من حوض ماء بارد الى حوض ماء مغلى .. وخيل اليه انه فقد رشده برهة .. فلما أفاق وفتح عينيه ، وجد نفسه مستلقيا على ظهره الى جوارها . وأمعن الاثنان تلك الليلة فى سعير جديد من أوضاع الحب .. وكان مكسيم يفقد صوابه بين الحين والآخر ، ثم يفيق ليعب مرة أخرى من هذه الخمر الملتهبة ، حتى يفقد الصواب .. !

وراحت الايام تمر تباعا والعاشقان لايرتويان ، فيزداد كل منهما استغراقا فى جحيم هذا الحب المستعر .. وكانا فى كل ليلة ــ حين تتخدر حواسهما من فرط هذا الاستغراق ــ يخيل اليهما انهما يطيران فى عالم غريب .. عالم امتزجت فيه الحرارة الشديدة بقطرات الماء المتساقط من الشجر ، برائحة الازهار العاطرة ، بالانفاس اللاهثة ، بالقبلات المسعورة ، وبالاستغراق الجنونى فى شهوات الجسد .. !

وفى ليال أخرى كانا يشعران كأنهما يتدحرجان نحو الجريمة .. نحو الحب الملعون .. نحو غابة مليئة بالوحوش .. وكان كل شىء فى تلك الحديقة الشتوية الحارة المشبعة بالرطوبة والشذى يزيد من اندفاعهما فى ذلك الاتون من الحب الذى لايرتوى



الإغراء ...

كانت القبلة الحارة التى طبعها ساكارد على عنق زوجته رينيه وهى توقع على الكمبيالة قد أوحت اليه بأفكار جديدة لاستغلال هذه الزوجة واستدراجها نحو التوقيع فى النهاية على بيع أراضيها فى شاردن اليه ، عن طريق لازسونيه ..

لقد اكتشف أن أنجح المفاوضات بين زوج وزوجة هى التى تجرى فى غرفة النوم ، وفى الفراش بالذات ، عندما يكون وجه كل منهما نحو وجه الآخر فوق الوسادة ..

الا أنه لم يكن متعجلا لاتمام هذه الصفقة التى كان مقدرا لها أن تدر عليه ربحا لايقل عن ثلاثة ملايين فرنك . ومن ثم قرر أن يقضى فصل الشتاء كله فى انضاج فكرته حتى تسقط الثمرة فى النهاية بلا عناء كبير .. !

وعدا هذا ، كان مشغولا بمئات الاعمال الاخرى . والواقع أن ذلك الشتاء كان من أشد مراحل حياته حرجا . كان مليئا بالصدمات والمفاجآت والمعارك اليومية العنيفة التى راح يخوضها باستماتة حتى لايعلن افلاسه . وبدلا من أن يخفف من بذخه واسرافه ، راح يزيد نفقاته زيادة جعلت المجتمع الباريسى يفغر فاه دهشة واعجابا .. كانت الحفلات والولائم التى يقيمها تباعا تثير أحاديث العجب والحسد فى جميع الاوساط ، وتدور حولها أخبار المجلات والصحف فى الصفحات المخصصة لانباء المجتمع ..

وكانت هذه المعارك كلها قد جعلته يهمل رينيه تماما ، وان كان فى أعماق نفسه يعد الجو المناسب لتوجيه ضربته والحصول على

أراضى شاردن بأبخس ثمن . ولهذا السبب كان يتظاهر أمامها بالعجز عن تسديد مطالبها المالية ، ثم يحصل لها على القروض بفوائد فاحشة ، عن طريق مكتب لارسونيه . وقد بلغت ديونها لهذا المكتب ، أو على الاصح ـ له هو ـ أكثر من مائتى ألف فرنك فى ذلك الفصل من الشتاء

أما رينيه ، فكان فصل الشتاء هذا بالنسبة لها سلسلة متتابعة الحلقات من الارتماء فى أحضان الحب المجنون مع مكسيم فى جناحها الخاص ، وفى الحديقة الشتوية

وكان الشيء الوحيد الذى يضايقها هو حاجتها الدائمة الى المال . وكان مكسيم يعاملها ـ رغم علاقته الجديدة بها ـ كزوجة أب من الناحية المالية ، اى كان يحول اليها فواتير نفقاته ، ويدعها تدفع حساب السهرات الخاصة التى يقضيانها معا .. ومع ذلك فقد كانت تشعر بسعادة بالغة وهى تعتصر ذهنها فى التفكير فى وسيلة للحصول على المال الذى تقدمه لمكسيم « الطفل الحبيب » حتى لايشعر بالاحتياج الى شيء ، وحتى يتفرغ لها بكل عواطفه وأفكاره .. !

وكانت كلما ظفرت بقرض جديد من مكتب لارسونيه ، انطلقت مع مكسيم لانفاق هذا المبلغ .. وكأنهما تلميذان صديقان وجدا « حصالة » زميل ثالث ، فراحا يتسابقان فى انفاق مافيها قبل أن يأخذها احد منهما .. فاذا فرغا من انفاق آخر فرنك ، عاش الاثنان ـ رينيه ومكسيم ـ فى الجناح الخاص ، يعبان بذلك النهم المسعور ، من خمر الحب الجنسى ، دون ان يخشيا مفاجأة أحد لهما ، لان الوصيفة سيلست كانت دائما فى موقف المراقبة خارج الجناح ، وكان ساكارد لايكاد يجد الوقت الذى يزور فيه زوجته طوال فصل الشتاء



وكان العاشقان يجلسان جنبا الى جنب ـ بعد أن يتخدر جسداهما من فرط الارهاق ـ بجوار المدفأة ، ويتبادلان الاحاديث والقبلات وعبارات الحب والنجوى التى لم يكن ينضب لها معين . وكانت رينيه قد ازدادت يقينا بأنها استطاعت أخيرا أن تملأ غرفات جناحها الواسعة الباردة الخاوية بالدفء والمتعة والحب .

لقد جعلت من ذلك الجناح هيكلا تمارس فيه سرا «عبادة» جديدة رهيبة : عبادة الجسد ، عبادة الاشتهاء ، عبادة المتعة الفوارة التى تخدر الجسم ، وتبلد الحواس ، وتشل العقل ..

ولم يكن هذا الاستغراق فى المتعة الجسدية يمنعهما من الخروج معا الى جميع الحفلات والولائم التى يدعيان اليها . وكان المجتمع الباريسى قد الف أن يراهما معا ، وكأنهما أخ أصغر من أخته ، أو أم شابة مع ابنها اليافع . وكان هذا راجعا الى شدة حرصهما على الظهور امام الجميع بمظهر البراءة والبساطة . ومن ثم لم يكن يخطر ببال أحد أن هذا الفتى المائع الطرى الاقرب الى الانثى منه الى الرجل ، هو العشيق الذى يلهب مشاعر رينيه ، ويغرقها فى سعير مضطرم من الحب !

وفى ذلك الفصل من الشتاء ، ذهبا لقضاء بضعة أسابيع فى منطقة سان موريتز للتزحلق على الجليد ، وفى الصيف انتقلا الى أحد المصايف ، حيث كان ساكارد يزورهما بين الحين والآخر ليطمئن على « الاولاد » !

ولما عاد الثلاثة أخيرا الى باريس فى الخريف التالى ، كان ساكارد قد رأى أن الوقت حان لاقتطاف الثمرة .. للظفر بأراضى شاردن بأبخس ثمن . ومن ثم قرر أن يكرس المزيد من الوقت لزوجته حتى ينتهى من الصفقة .. فى غرفة النوم .. !

وكان شعور رينيه بالقلق فى خلال هذه الفترة يزداد يوما بعد يوم ، ولم يكن قلقها نابعا من تراكم ديون مكتب لارسونيه عليها ، وانما من فواتير محلات ورمز التى بلغت قيمتها فى ذلك الخريف نحو مائتى الف فرنك !

وأسوأ من هذا كانت ديون مكسيم ! .. لقد كان الشاب يستدين باسراف ، وكانت رينيه تبذل كل جهد ممكن لتسديد ديونه أو لتضمنها ، ولكنه أخطأ ورهن جواهر سيلفيا التى كانت أمانة لديه بمبلغ عشرين الف فرنك ، وبذلك أصبح معرضا للسجن اذا طالبته سيلفيا بهذه الحلى فى أية لحظة قبل أن يسدد قيمة الرهن !

وكانت رينيه كلما فكرت فى هذا الموقف ، تكاد تفقد صوابها

كانت لا تستطيع ان تتصور مجرد فكرة القبض على مكسيم وايداعة السجن بضعة ايام ، حتى يسرع الوالد آلى تسديد الدين والافراج عنه .. ولم يكن هناك شك فى أن ساكارد سوف يفعل هذا ، ولكن لم يكن هناك أيضا شك فى انه لن يفعل هذا الا بعد ان يسجن ابنه بضعة ايام ، ثم يقوم هو بهذه الحركة المسرحية لكى تتحدث الصحف عن « بر الوالد بابنه » وعن « خطأ » القضاء الذى يقبض على ابن رجل واسع الثراء مثل ساكارد ..!

كانت رينيه كلما فكرت فى انها قد تحرم ليلة واحدة من مكسيم، تشعر بالقلق الشديد .. ومن ثم أقسمت أن تحصل على هذا المبلغ بأية وسيلة ، بل قررت أن تحصل على ستين ألف فرنك لكى تدفع منها عشرين ألف فرنكلاسترداد حلى سيلفيا ، وثلاثين ألف فرنك لارضاء محلات ورمز حتى تلهيها فترة أخرى .. ثم الاستمتاع بالمبلغ الباقى مدة يومين او ثلاثة !

وخطر لها أن تطلب من زوجها أن يأتيها بهذا المبلغ من مكتب لارسونيه ، ولكنها رأت أن ترجىء هذا الطلب حتى اخر لحظة .. لانها لاحظت أن زوجها كان يزداد حرارة فى تقبيلها كلما جاء اليها بمبلغ جديد مقترض .. بل لقد طالبها ، تلميحا فى اخر مرة بأن تسمح له بقضاء الليل معها فى جناحها الخاص ، ولكنهااعتذرت بتوعك صحتها ..!

وكانت رينيه ، بتفكيرها الخاص ، لا تستطيع أن تتصور قط أن تسلم جسدها للاب والابن فى وقت واحد، أو فى ليلة وحدة.. لقد كف الوالد عن ممارسة حقوقة الزوجية منذ اكثر من ست سنوات . ولهذا كانت تشعر ــ ربما على سبيل التبرير ــ انها زوجة للوالد اسما ، وللابن فعلا ..!

ولم يسع رينيه الا أن تبتسم فى شحوب ، وهى تذكر تلميحات زوجها فى المرة الاخيرة حين قال لها :

ــ اننى سأحاول ان أحصل لك على ثلاثين ألف فرنك .. وسآتى بالمبلغ بنفسى مساء اليوم الى جناحك ولن يكون هناك كمبيالات هذه المرة ..

ثم انحنى عليها وطوقها برفق وقبل شفتيها .. ولكنها

تخلصت منه بسرعة ، وهى تتظاهر بالضحك ، وقالت :

ـ لا .. لا .. لاداعى للاستعجال .. اننى لست فى حاجة ملحة الى هذا المبلغ اليوم ، كما أننى أشعر بتوعك فى صحتى ..

وتظاهر ساكارد بأنه لم يفهم صدها المقصود ، ومن ثم نهض وقال ببساطة :

ـ اننى تحت امرك على كل حال .. ولكنك لم تخبرينى باليوم الذى تحتاجين فيه الى هذا المبلغ .. ؟

ولما انصرف ساكارد عنها ، اسرعت وارتدت ملابس الخروج الفاخرة ، وأمرت باعداد المركبة .. ثم انطلقت بها الى بيت أبيها الكبير فى حى « أيل سان لويس » .. وهنــــاك شعرت بالحرج الشديد ، وبالغربة المبهمة ، وهى تصعد الدرجات العريضة نحو الطابق الكبير الذى يقيم فيه والدهامع عمتها اليزابث .. كانت ترى أن ثوبها الفاخر الثمين ، لا يتناسب مع وقار البيئة المحافظة التى عاشت فيها سنوات شبابها الباكر !

ووجدت أباها فى غرفة الجلوس ، جالسا بجوار النافذة المطلة على الحديقة الخلفية كالمعتاد ، يقرأ فى كتاب كبير موضوع على طاولة مشدودة الى ذراعى مقعده الوثير . وبجوار النافذةالاخرى وفى مواجهـــــة الوالد ، جلست العمة اليزابث تعمـــــل فى قطعة تطريز ..

وكان الصمت مخيما .. وكأنما الغرفة محراب للصلاة ..!

وشعرت رينيه بالقلق والحرج ، وخيل اليها أنها لن تستطيع أن تتحـــــرك حتى لا يزعج حفيف ثوبها الباهظ الثمن هـــــدوء البيت ووقاره ..

وجلســـــت اخيرا ـ بعد أن تبادلت التحيــة مع العجوزين ـ وراحت عمتها تتحدث عن قرب زواج كريستين ، الاختالصغرى لرينيه ، من ابن محام متوسط الثراء . وقالت ان العروس ذهبت مع الخدم لشراء بعض ما يلزم لليلة الزفاف ..

وازداد شعور رينيه بالقلق والحرج ، وخيل اليها ان السكون الثقيل المخيم على البيت يحط على كتفيهـــا .. وتمنت فى تلك اللحظة لو أنها جاءت لزيارة أبيها وعمتها بثوب أقل ثمنا وأبسط

مظهرا .. ذلك ان نظرة ابيها الصامتة الى الثوب كانت تنم عن اشمئزازه المجنون ..

وفجأة قالت العمة اليزابث ، وكأنما ترى الثوب الفاخر لاول مرة :

ــ ما أجمل فستانك الرائع هذا يا عزيزتى .. !

وارتسمت على شفتى الوالد ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ــ ولكن هذا الثوب لا شك يلفت الانظار ويثير الغبار بأذياله الكثيرة فى الطريق ..

وهنا قالت رينيه متعجلة :

ــ ولكننا يا أبى لا نسير فى الشوارع على الاقدام أبدا !!

الا أنها لم تلبث أن ندمت على النطق بهذه العبارة ..

وعاد الوالد الى قراءة كتابه ...

وبعد فترة صمت قصيرة ، قالت رينيه :

ــ اننا لم نعد نراك يا أبى فى هذه الايام ..

ولم يجب السيد دى شاتل ، وانما أجابت بدلا عنه العمة اليزابث :

ــ ان أباك لا يغادر البيت كثيرا فى هذه الايام ، الا اذا أراد الذهاب الى حديقة النباتات التى يحبها .. وكثيرا ما عاتبته على انقطاعه عن زيارتك ، ويحسن أن تعاتبيه أيضا ..

وقال الوالد :

ــ الحقيقة أننى أصبحت أضل الطريق الان فى باريس .. ان باريس فى هذه الايام لم تعد تناسبنى .. أو ــ على الاصح ــ لم اعد انا مناسبا لها .. !

وقالت رينيه :

ــ ان زوجى يسره كثيرا أن يراك فى يوم الاستقبال الاسبوعى بمنزلنا .. انه يوم الخميس ..

فقال الوالد :

ــ أرجو أن تبلغى شكرى الى زوجك .. ويلوح لى أنه رجل موفور النشاط . ولكننى أرجو ــ من أجلك ــ أن تكون مشروعاته كلها قائمة على اسس سليمة مشروعة . وانى لاعترف لك بأن

وجهات نظرنا تختلف كثيرا ، ولهذا فانى لا أشعر بالراحة عندما ازوركما فى قصركما الفاخر ..

وهنا قالت العمة اليزابث التى كانت تعرف شدة كراهية اخيها لحكومة نابليون الثالث :

ـ الواقع يا عزيزتى رينيه أن والدك غاضب منك ، ومن زوجك، منذ عرف أنكما تترددان على حفلات القصر الامبراطورى ..

وهز الوالد كتفيه ولم يجب ..

ومرت لحظة حاولت فيها رينيه أن تطلب من أبيها أن يقرضها ستين الف فرنك ، ولكنها لم تستطع .. اذ كيف تطلب منه هـذا القرض وهى ترتدى ثوبا يساوى عشرة الاف فرنك ؟ !

ولما أيقنت اخيرا أنها لن تستطيع أن تطلب منه هـذا المبلغ ، نهضت وصحبتها عمتها الى درجات البهو الكبير المؤدى الى مدخل البيت ، وكانت لا تكف عن الحديث وهما تجتازان ممرات الطابق الثانى .. حتى اذا بلغتا رأس السلم قالت العمة :

ـ ان السعادة تبدو عليك يا طفلتى الحبيبة .. ولشد ما يسرنى أن أراك سعيدة وفى تمام الصحة والعافية . آه .. كم كنت اخشى ان أكون قد اخطأت بزواجك من السيد ساكارد ! ولكن حمدا لله .. لقد نجح هذا الزواج وجعلك احـدى شخصيات المجتمع الباريسى اللامعة !

وقالت رينيه وهى تغتصب ابتسامة ، رغم القلق الذى يملأ قلبها :

ـ طبعا .. طبعا يا عمتى ..

وضغطت العمة على يد ابنة أخيها ، واستبقتها فى يدها برهة ، وهى تقول :

ـ اننى اخشى فقط أن تدير هـذه السعادة رأسك ، وتجعلك ترتكبين بعض التصرفات الطائشة .. ولهـذا أرجوك ان تكونى حازمة ، ومتـزنة ، والا تبيعى بأى حال من الاحوال ممتلكاتك ، ولا سيما أراضى شاردن ..

ولما عادت رينيه الى داخل مركبتها ، تنهدت بعمق وهى تحس بقطرات العرق البارد تتفصد على جبينها . ولكنها ما كادت تبلغ

بالمركبة شارع سان بول حتى تذكرت مبلغ الستين ألف فرنك الذى جاءت من أجله .. ومن ثم عاودها الشعور بالقلق والحيرة ، وخطر لها أن تعود مرة أخرى وتطلب المبلغ من عمتها . ولكنها عدلت عن تنفيذ هذا الخاطر ، وطلبت من السائق أن يمضى بها الى شارع نومبرج بواسونيه ..

وأطلقت مدام سيدونيه صيحة ابتهاج خافتة حين رأت رينيه تطل بحذر من باب المتجر الصغير . وكانت مدام سيدونيه فى طريقها الى الخارج ، ولكنهـا عدلت فورا عن الخروج ، وأصرت أن تصعد رينيه معها الى سكنها القائم فوق المتجر ..

وفى المسكن الصغير ، جلست مدام سيدونيه أمام رينيه وقالت لها وهى تأخذ يدها البضة الناعمة من بين يديها المعروقتين :

ــ الآن نستطيع يا حبيبتى أن نتحدث على انفـراد دون أن يفاجئنا أحد ، آه .. تصورى انى كنت عازمة على زيارتك الليلة ..

ونظرت رينيه فى قلق الى السرير الكبير الموضوع بجوار الجدار المواجه ، ثم قالت :

ــ أهذه غرفة نومك يا مدام سيدونيه ؟

فغمزت مدام سيدونيه بعينيها وقالت :

ــ لا .. انها غرفـة نوم عميـلاتى الجميلات .. وقد اصرت احداهن على أن أجعل اللون الاحمر هو الغـالب على المفـارش والستائر كما ترين ..

فقالت رينيه وهى تهز كتفيها :

ــ انه لون شعبى رخيص ..

ثم راحت تفحص بقية جوانب الغرفة التى بدت لها فى النهاية انها شبيهة بغرفة نوم فى فندق كبير ..

وقالت أخيرا لمدام سيدونيه :

ــ تقولين انك كنت عازمة على زيارتى الليلة ..

ــ نعم يا حبيبتى .. بكل تأكيد ؟

ــ لمـاذا ؟ ..

ــ لاخبرك بأن السيد دى سافريه يكاد يموت من فرط حبه الملتهب لك يا حبيبتى .. ولا شك أن له العذر !

فابتسمت رينيه فى مكر وقالت :

ـ عجبا .. لقد سمعتك منذ أسابيع قليلة تقولين أنه يكاد يموت من فرط حبه لمدام ميشيلين ؟

فهتفت مدام سيدونيه وقالت :

ـ آه ، لقد انتهى هذا كله منذ أسبوعين .. واستطيع أن اثبت لك هذا بالدليل القاطع . ان مدام ميشيلين أصبحت الآن العشيقة الجديدة للبارون جورود العجوز . والواقع أننا جميعا مدهوشون لهذا الحب بين شابة فى ربيع عمرها وبين عجوز فى الستين ؟ ولكن اذا عرف السبب ، بطل العجب .. اذ أن الاخبار تؤكد أن العشيقة الحسناء سوف تظفر لزوجها بلقب كونت عن طريق البارون جورود

ثم أردفت قائلة بلهجة امتزج فيها الاعجاب بالعتاب :

ـ انها امرأة بارعة تعرف كيف تستفيد من علاقاتها بالعشاق .. ولكن لنعد الى السيد دى سافريه .. يقول انه رآك فى حفلة بلانش موللر التنكرية ولم يعرفك حين وجهاليك الدعوة للعشاء .. فهل هذا صحيح ؟

ـ نعم .. تماما ..

ـ ولكنه عرفك وأنت تغادرين الحفلة مع مكسيم .. ومنذ ذلك الحين وهو غارق فى حبك الى أذنيه . ان هذا الحب ظل ينمو ويزدهر فى قلبه حتى أصبح الآن يعيش على أمل واحد .. وهو أن تعطفى عليه وتخففى بعض عذابه .. !

وهزت رينيه كتفيها ، ثم قالت فجأة وقد تذكرت المهمة التى جاءت من أجلها :

ـ دعينا من حديث الحب يا مدام سيدونيه ، على الأقل فى الوقت الحاضر ، لقد جئت اليك وانا أرجو أن أجد لديك ستين الف فرنك .. انك لا شك تعرفين ـ كما قلت ـ أشخاصا يمكنهم اقراضى هذا المبلغ ..

وطافت لمحة من استياء على وجه مدام سيدونيه بسبب تحول مجرى الحديث على هذا النحو من الحب الى المال .. ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ـ نعم .. نعم .. بكل تأكيد ، ولكننى أنصحك يا حبيبتى أن نلتمسى هذا المبلغ ـ واضعافه ـ من أصدقائك والمغرمين بك الذين يتمنون أن يضعوا ثرواتهم رهن اشارتك .. ولتبدئى مثلا بالسيد دى سافريه ..

فابتسمت رينيه وقالت :

ـ أتعتقدين أن هذا يليق ؟

فنظرت المرأة اليها فى دهشة بالغة كأنما تأبى أن تصدق أذنيها ، ثم قالت :

ـ أوه .. يالك من ساذجة ! .. يلوح لى أنك كنت تبكين أمس من فرط القلق ؟ لا تنكرى .. اننى أرى هذا فى عينيك .. ولكن ، اطمئنى .. اتركى لى اعداد كل شىء من اجل راحتك .. كل ما أرجوه منك أن تتكيفى مع الحياة .. !

ونهضت رينيه وهى تشعر بالقلق يزداد فى أعماق نفسها ، وفتحت فمها ، ربما لتعلن موافقتها ، لولا أن سمعت رنين جرس خافت فى الغرفة الاخرى .. وأسرعت مدام سيدونيه لتفتح باب المسكن . ثم ظلت غائبة لحظات ، سمعت رينيه خلالها همسات متبادلة بين مدام سيدونيه ورجل ..

وظلت رينيه واقفة فى مكانها تنظر الى السرير الكبير ، وتشعر بمزيد من الارتباك والحيرة .. فلما عادت مدام سيدونيه ، أشارت الى رينيه لكى تخفض صوتها عند الحديث ، ثم همست فى أذنيها قائلة :

ـ يا لحسن الحظ .. تصورى ان السيد دى سافريه هو الذى حضر الان ؟

ـ أرجو الا تكونى قد أخبرته بأنى هنا ..

فتظاهرت مدام سيدونيه بالدهشة ، وقالت ببراءة مصطنعة :

ـ لقد أخبرته فعلا .. وهو ينتظر الان الاذن بالدخول . ولكننى لم اخبره طبعا بمسألة الستين الف فرنك

وشحب وجه رينيه ، وشدت قامتها بقوة كأنما صفعها أحد .. وفاض الكبرياء فى قلبها ، وازداد شعورها بالنفور وهى تسمع وقع خطوات الرجل القلق فى الغرفة المجاورة ، وأخيرا قالت بصوت زاخر بالامتعاض :

ـ اننى منصرفة .. تعالى وافتحى لى باب المتجر ..

فحاولت مدام سيدونيه أن تبتسم ، وهى تقول :

ـ لا تكونى حمقاء يا عزيزتى .. ماذا أقول لهذا العاشق الولهان بعد أن أخبرته بوجودك ؟ حاولى أن تجلسى معه لحظات على الاقل ..

ـ افتحى الباب بسرعة ودعينى أنصرف .. !

ولما حاولت المرأة ـ عبثا ـ أن تجادل رينيه ، ارتسم الغضب فى عينيها وقالت :

ـ ولكن .. ماذا أقول للرجل ؟

فهتفت رينيه بصوت كظيم :

ـ قولى له اننى لست للبيع .. !

ـ ولكن يا حبيبتى ..

ـ افتحى الباب والا استغثت ..

ـ لا تنسى حاجتك الشديدة للستين الف فرنك ..

فاستدارت رينيه اليها ، وقالت بعنف :

ـ قلت لك اننى لست للبيع .. !

وهزت مدام سيدونيه كتفيها فى يأس ، ثم فتحت الباب من الداخل بالمفتاح الذى كانت تحتفظ به فى جيب ثوبها ، ثم قالت وهى تطحن على أسنانها :

ـ لسوف تندمين .. !

وفيما كانت رينيه تمرق من الباب الى المركبة الواقفة فى انتظارها ، خيل اليها أنها سمعت المرأة تقول :

ـ ولسوف أجعلك تدفعين الثمن غاليا . . !

وقالت رينيه لنفسها ، وهى تلوذ بداخل المركبة :

ـ يا للعار ؟.. اننى افضل فى هذه الحالة ذراعى زوجى !..

الفصل الثامن

العاشق الخفي

عادت رينيه الى القصر .. وهناك طلبت من مكسيم أن ينصرف بعد تناول العشاء ، قائلة انها فى حالة نفسية لا تسمح لها بقضاء ليلة ممتعة معه . واطاع مكسيم رغبتها بعد ان اعتاد على نزواتها ..

ولكنه دهش فى اليوم التالى عند ما سلمته مبلغ العشرين ألف فرنك ليسترد حلى سيلفيا . وحاول أن يعرف مصدر هذا المبلغ ، ولكنها كانت تزداد ارتباكا وتلعثما كلما أسرف فى القاء الاسئلة .. الا أنه فهم منها أن والده ، بعد أن أتم صفقة رابحة ، استطاع أن يأتى اليها بمبلغ ستين ألف فرنك ، دفعت منه ثلاثين الف فرنك لمحلات ورمز ، وانها لا تزال تحتفظ بمبلغ عشرة الاف فرنك ..!

ومنذ ذلك اليوم ، لاحظ مكسيم أنها كانت تنتظره كل ليلة فى مكان خفى بجوار الحديقة الشتوية لكى تدخله الى جناحها .. أو تطلب منه أن ينصرف ..

ولم يكن مكسيم يهتم كثيرا بهذه التقلبات العاطفية ، لانه اعتاد أن يكون مطيعا دائما لنزوات النساء ، الا أنه بدأ يلاحظ انها لم تعد تتجاوب معه فى ساعات الاستغراق العاطفى كما كان شأنها من قبل . وأسوأ من هذا تلك الدموع التى كانت تتألق فى عينيها احيانا وهى بين ذراعيه ، فاذا سألها عن السبب ، هزت رأسها ولم تجب !

ومن ثم قال لنفسه عندما ازدادت تقلباتها العاطفية : انها لن تصلح عشيقة لى بعد عام أو عامين .. !

ولكنه فى الواقع لم يكن يعرف أنها فى تلك الايام كانت تتعذب

بقسوة .. بل رأت أنه كان من الافضل لها لو أنها أطاعت مدام سيدونيه وباعت نفسها للسيد دى سافريه . لقد اشمأزت من العرض الذى عرضته عليها تلك المرأة ، واستسلمت لكبريائها ، ونفرت من قبول هذه الصفقة الرخيصة الحقيرة .. ولكنها فى الايام التالية أحست أنها تعقد صفقة أرخص وأحقر .. !

لقد شعرت وهى تسلم نفسها لزوجها فى تلك الايام التالية أنها اشد حقارة وهوانا من اية بغى رخيصة فى الطريق . وكانت كلما تخلصت من أحضان زوجها ـ بعد ليلة رهيبة من هذه الليالى التى عاد فيها زوجها يمارس معها حقوقه الزوجية بتلك الطريقة الوحشية ـ راحت تلتمس المتعة الحقيقية بين ذراعى مكسيم الناعمتين الرقيقتين .. الا انها لم تعد تشعر بهذه المتعة بعد أن وجدت نفسها تبيع جسمها للوالد من أجل المال ، وتسلمه للابن من أجل الحب !

واحتفظت بآلامها لنفسها .. وكانت تؤثر أن تموت على أن تخبر مكسيم بالحقيقة . كانت تخشى أن يشمئز الشاب ويهجرها بعد أن يعرف أن أباه قد عاد اليها كزوج حقيقى .. !

ولكن هذه الآلام النفسية لم تكن تمنعها من أن تقيم باريس وتقعدها ـ كعادتها ـ بحفلاتها وولائمها وملابسها ، ودعاباتها التى كانت الصحف تتسابق الى نشرها . وقد بلغ من اسرافها فى هذه النزوات والتقلبات أن بدأ مكسيم ينظر اليها فى شىء من الخوف وهو يحس فى اعماقه انها على وشك الجنون !

وفى خلال هذا السعير من الحياة الصاخبة الفائرة المتقلبة ، كانت رينيه تحاول جاهدة أن تبرر تصرفاتها بأنها ليست شاذة عن تصرفات نساء المجتمع الذى تعيش فيه .. اذ ما هى الجريمة البشعة التى ترتكبها كل ليلة وتعذبها هكذا ؟ .. أليست هى نفس الجريمة التى ترتكبها كل امرأة من سيدات المجتمع اللاتى يتباهين ويتفاخرن بعدد عشاقهن ؟ !

والامبراطورة نفسها ؟ .. ألا يدور الهمس فى كل مكان عن غرامياتها التى تجاوزت فرنسا الى أوروبا ؟ ! ..

اذن لماذا هى وحدها التى تعذب نفسها على هذا النحو ؟ ! ..

واستطاعت بمثل هذه الخواطر ان تغلف مشاعرها بالمبررات ، وان تبلد ضميرها ، وأن توحى لنفسها بأنها تعيش فى بيئة خاصة ترتفع فوق المبادىء الاخلاقية المعترف بها فى أية بيئة أخرى .. !

ولكن سيلست مثلا .. وصيفتها الشابة الحسناء !..

ان هذه الفتاة الهادئة الساكنة الكتوم لم تحدثها قط عن علاقتها بأحد ، حتى ولو بواحد من الخدم الشبان الذين لم يكن ينقص أحدهم جمال المظهر ورقة الطباع . .

وقد سألتها رينيه ـ ذات يوم ـ وهى تساعدها على خلع ملابسها :

ـ سيلست ؟ الم يحاول احد الشبان ان يغازلك ؟!..

فاضطرم وجه الفتاة وقالت :

ـ كثيرون يا سيدتى ؟ ..

ـ وانت ؟ الم تحاولى أن تستجيبى لشاب معين منهم .. ؟ !

ـ لا .. مطلقا ..

ـ لماذا ؟ ! ..

وصمتت الفتاة برهة ، ثم قالت مراوغة :

ـ لا أدرى ..

وأدركت رينيه أن الفتاة تخفى سرا ، ولكنها تجاهلت هذا وقالت :

ـ لو عرض عليك رجل وسيم مثل بابتست رئيس الخدم عندنا الزواج ، فهل ترفضين .. ؟

ـ طبعا يا سيدتى ! ..

ـ لماذا يا سيلست ؟..

ومرة أخرى راوغت الفتاة قائلة :

ـ لا أدرى يا سيدتى ..

وهكذا عجزت رينيه عن استدراج الفتاة الى التصريح بشىء محدد عن أسرار قلبها ..

***

وكانت الحياة المزدوجة التى عاشتها رينيه فى تلك الفترة ، قد جعلتها تزداد حذرا وحيطة حتى لا يلتقى الوالد والابن فى مخدعها

ذات ليلة . ولكنها لاحظت أن تخفيف حدة اندفاعها الى مكسيم ، جعله يعود الى تلك الفتاة الحدباء لويز ، والى مغازلاته المكشوفة معها ، وتبادله معها اللمسات والقبلات فى اركان الغرف عندما يكونان مدعوين معا الى هذه الحفلة أو تلك ..

وحاولت رينيه أن تقنع نفسها بأنها ليست غيرى من هذه « الحدباء السقيمة » كما كانت تسميها ، لانه ليس من المعقول أن تغار من فتاة أجمع الاطباء على أن أيامها فى الحياة معدودة ، وانه ليس من المحتمل أن تعيش عاما آخر . ولهذا السبب كانت واثقة كل الثقة أن مكسيم يغازلها بدافع العطف والاشفاق ، وأنه لن يتزوجها حتى او كانت « دوطتها » مليون فرنك !

ولكنها ، مع هذا كله ، قررت أن توجه الى لويز طعنة قد تقضى عليها ــ كما خطر لها ــ فى يوم وليلة . ومن ثم انتهزت أول فرصة سانحة أثناء يوم الاستقبال الاسبوعى ، واستدعت مكسيم اليها .. وكانت لويز جالسة فى مكان قريب من باب الحديقة الشتوية . والواضح أن رينيه اختارت اللحظة والمكان المناسبين تماما لكى تفاجىء مكسيم وتطوقه وتغيب معه فى قبلة حارة بحيث لا يراهما أحد الا لويز .. !

ونجحت الخطة ، ورفعت رينيه راسها وتظاهرت بأنها ترى لويز لاول مرة ، وانها فوجئت بها .. فاضطرم وجهها بشدة ، بينما حاول مكسيم أن يروغ بعيدا وهو يتمنى لو انشقت الارض وابتلعته !

وهمس فى جزع شديد :

ــ لقد راتنا لويز يا رينيه .. !

فهزت رينيه كتفيها وقالت :

ــ وماذا فى هذا ؟!..

أما لويز فقد اقتربت منهما ، وهى تبتسم ابتسامة الانسان الذى يشترك مع صديقين له فى كتمان سر معين ..

وقالت وهى تضع ذراعها فى ذراع مكسيم :

ــ هلم نرقص يا رجلى العزيز .. !

وعضت رينيه على شفتيها ، وهى تقول لنفسها : يبدو أن

الماكرة قد أدركت الهدف .. حسنا ، سوف نرى من التى ستفوز فى النهاية ..

أما مكسيم ، فقد قال للويز بعد أن هدأ روعه :

ـ يالك من فتاة ذكية عاقلة .. رزينة !

وكان مكسيم فى الواقع ، شديد الترحيب بالزواج من لويز .. ذلك انها كانت تبدو فى نظره ، رغم مرضها وحدبتها ، لطيفة جذابة ناضجة الانوثة ، لا تكف عن الضحك والمرح والعبث اللطيف . . هذا فضلا عن مبلغ المليون فرنك الذى وعد أبوها السيد دى موريل أن يقدمه « دوطة » لها تؤول الى مكسيم فى حالة وفاتها ..

***

وأهم من هذا كله ، أن مكسيم بدأ يمل حياته الجنونية مع رينيه .. وكان يخشى أن تصاب ذات ليلة بالجنون وهى بين ذراعيه من فرط حالة السعار الجنسى التى تنتابها كلما سلم نفسه اليها ..

ولهذا السبب ، كان ينتظر الفرصة المناسبة لقطع كل علاقةبينه وبينها . ولكنه لم يكن بعد قد وضع الخطة التى يستطيع بها قطع هذه العلاقة نهائيا . ان علاقته بها ـ كابن لزوجها ـ كانت سببا قويا لعدم استمرار علاقته بها كعشيق .. ولكن هذا السبب نفسه يعوقه الى حد كبير عن قطع كل علاقة غرامية بها .. فلو أنها كانت أمرأة أخرى لاتربطه بها الا صلات الحب ، لامكن بسهولة أن يخرج من حياتها الى الابد . أما رينيه ـ زوجة أبيه ـ فكيف يخرج من حياتها على هذا النحو ؟ ..

ان كل مايستطيعه هو أن يبتعد عنها بقدر الامكان . وكان يعلم فى قرارة نفسه أنه لايستطيع أن يواجه ثورتها اذا عرفت أنه يريد أن يهجرها .. بل انه كان عاجزا تماما عن بذل أى مجهود اصدها ، عندما يقع بين ذراعيها فريسة لغرامها الملتهب وعناقها المشبوب ..

ثم هناك أمر آخر .. انها غدا غرامها به ، تعامله بحنان الام .. تقدم اليه حاجته من النقود ، وتحقق رغباته ونزواته،وتساعده فى الخروج من المآزق التى تدفعه اليها هذه الحياة الطائشة . ولكن.. لا ، ان فكرة المليون فرنك « دوطة » لويز تجعله يعيد النظر فى هذا كله ، حتى وهو بين أحضان رينيه .. واذا هو يؤكد لنفسه أن هذا

الوضع يجب أن ينتهى على نحو ما ! ..

وفى ذات ليلة ، خسر مكسيم كل ماكان لديه من نقود ــ بسرعة بالغة ــ أثناء لعبه الميسر فى مسكن احدى سيدات المجتمع . ولما كان اللعب عادة يستمر حتى اسفار الصباح ، فقد شعر مكسيم ــ كأى مقامر آخر ــ بالغضب الشديد حين وجد نفسه مفلسا قبل منتصف الليل . وكأى مقامر أيضا ، شعر انه على استعداد لان يضحى بأى شىء .. اى شىء ، للحصول على بضعة جنيهات ذهبية يواصل بها اللعب

وتناول قبعته ، وغادر وكر المقامرة .. وانطلق بخطوات الرجل الذى سيطرت عليه فكرة معينة ، وذهب الى مقر أبيه فى باركمونكو، وتسلل الى مدخل جناح رينيه من الباب الخلفى ، ووقف فى ظلال باب الحديقة الشتوية وراح يصفر مقلدا طائرا معينا .. وكان هذا الصفير هو الاشارة المتعارف عليها ..

وتذكر فى تلك اللحظة أن رينيه كانت قد طلبت منه فى الصباح الا يعود فى المساء .. ولكن ، لم لا ؟. انه يرى ضوءا ينساب من نافذة مخدعها ، اذن فهى لاتزال مستيقظة رغم انتصاف الليل.. ولكن ، لماذا لاتستجيب لصفيره الخافت وقد اعتادت ان تفعل ؟ .

وكرر الصفير مرة بعد مرة بنغمة أكثر ارتفاعا .. وكان يزداد عنادا واصرارا كلما ذهب صفيره عبثا . وقرر ألا ينتقل من مكانه حتى يأخذ منها مبلغا من المال يعود به الى مواصلة اللعب ..

واخيرا جدا ، رأى الباب البللورى لجناحها الخاص يفتح فى حذر ثم اذا رينيه تأتى اليه فى مدخل الحديقة الشتوية حافية القدمين عارية الجسد الا من غلالة لا تكاد تخفى شيئا ، مرسلة الشعر كأنما نهضت من نومها بسرعة أو كانت تستعد للنوم ..

ودون أن تنطق بكلمة ، تناولت يده وهبطت به الدرجات القليلة المؤدية الى ممرات الباب الخلفى .. وهناك وقفت فى البرد القارس غير مبالية ، وقالت له وهى تحاول كبت شعورها بالغضب والاستياء :

ــ لقد طلبت منك عدم الحضور الليلة .. فماذا تريد ؟

فقال مكسيم وهو لا يخفى دهشته من هذا الاستقبال :

ـ هلم نصعد الى الدفء أولا ثم أخبرك .. اننى أخشى أن تصابى بنوبة برد قاسية ..

وفيما هو يهم بالتقدم ، أمسكت به ومنعته .. ولاحظ أن وجهها شديد الامتقاع لفرط ما ارتسم عليه من فزع خفى ..

ولم يتمالك نفسه من ان يهتف قائلا فى دهشة متزايدة :

ـ ماذا بك ؟ . هل انت محمومة ؟ . مريضة ؟ .

ثم رفع عينيه الى نافذة مخدعها ، وفجأة قال :

ـ ارى ظلال رجل فى غرفة نومك !

فتمتمت متلعثمة ، وهى تحاول أن تبتعد به :

ـ لا .. لا ، هذا غير صحيح ..

ـ بل انى ارى ظله بكل وضوح وراء زجاج النافذة ..

وهنا وقف الاثنان برهة ـ وجها لوجه ـ لا يدرى احدهما ماذا يمكن أن يقول للآخر . وكانت أسنان رينيه تصطك من فرط الفزع ، كما كانت تشعر كأن فيضا من الماء المثلوج يغمر قدميها ويصعد الى ساقيها . أما مكسيم ، فقد خامره من الاستياء أكثر مما كان يظن ، الا انه استطاع أن يملك زمام نفسه حتى يتمكن من التفكير بروية ، ومن أن يقول لنفسه ان الفرصة التى كان ينتظرها لقطع علاقته الغرامية برينيه قد سنحت اخيرا !

وهكذا قال بهدوء :

ـ انك لن تستطيعى أن تقنعينى بأن هذا الظل ، ظل سيلست ، لأن ..

وأرسل ضحكة استياء قصيرة ، وأردف قائلا :

ـ لانه يخلع الان معطفه .. ولو لم يكن الزجاج سميكا لاستطعت أن أتبين ملامحه ..

ودفعت رينيه بمكسيم الى ظل خميلة فى الفناء الخلفى ، وقالت بصوت يقطر بالفزع وبالتوسل :

ـ ارجوك .. أرجوك يامكسيم ..

وثارت كل عوامل الشر الكامنة فى مكسيم ، وأحس برغبة عارمة فى الانتقام من هذه المرأة التى اعتصرته ثم خدعته . وعدل عن صفعها

كما كان ينوى اولا ، واكتفى بان قال فى صوت يسيل بالازدراء :

ـ كان يجب أن تصارحينى بهذا حتى لا ازعجك .. ان ماحدث بيننا يحدث فى كل ليلة مع غيرنا .. ان الفرام لا يمكن أن يربط اثنين مثلنا مدى الحياة ، واستطيع أن أصارحك بأنى بدأت أسأم هذه العلاقة فى الآونة الاخيرة .. أوه ، أرجوك .. انتظرى لحظة أخرى . لسوف أدعك تصعدين فورا ، ولكن ليس قبل ان تخبرينى باسم هذا العشيق الجديد ! ..

وضحك وهو يمسك بمعصميها بقوة ، وحاولت هى أن تتخلص منه دون أن تفتح شفتيها المطبقتين خشية أن يند عنهما اسم .. الرجل الاخر !

وعاد مكسيم يقول :

ـ اذا استمر الحال هكذا ، فسوف نلفت أسماع السيد الولهان .. فكيف يكون الحال ؟ . أيرضيك أن يهجرك أيضا ؟ ألسنا صديقين حميمين ؟ . ألم نكن نتبادل الاسرار دائما ؟ هيا .. اخبرينى باسمه .. هل هو السيد ماسيه الذى ربما أشفقت عليه أخيرا ؟ ..

ولم تجب رينيه ، وانما أحنت رأسها حتى لايعرف الحقيقة من أمارات وجهها ..

وعاد هو يقول :

ـ ليس السيد ماسيه ؟ . اذن هل يكون الدوق دى روزان ! أليس هو أيضا ؟ . ربما يكون الكونت دى شابرى ؟ يبدو انه ليس هو .. اذن من يكون ؟

وصمت برهة مفكرا ، وأخيرا استطرد يقول :

ـ اننى لا أعرف أحدا آخر يتمنى أن يكون عشيقا لك .. أوه .. ليس من المعقول أن يكون أبى رغم تأكيدك بأنه لم .. لم .. أنت تعلمين طبعا !..

فجفلت رينيه كأنما لسعها أحد بطرف سيجار مشتعل ، ثم قالت بصوت أجوف :

ـ لا .. انت تعرف ان أباك لم يعد يأتى الى .. وانا لن اسمح بهذا لانى لا أستطيع ان انحدر الى هذا المستوى ..

ـ اذن من يكون ؟ ..

وشدد قبضته عليها ، وقاومت رينيه قليلا وهى تحرص على عدم اثارة اية ضجة تلفت أسماع احد اليهما .. وهمست قائلة :

ــ أوه .. لو انك تعرف الحقيقة يامكسيم .. ولكن لا .. لا أستطيع ..

ثم انهارت فجأة ، وقالت وهى ترفع عينيها الى نافذة مخدعها :

ــ انه .. انه دى سافريه ..

وتراجع مكسيم خطوة كأنما صفعته رينيه بقوة .. وعض على نواجزه وهو يذكر المنافسات العنيفة السابقة التى دارت بينه وبين دى سافريه على قلوب الفوانى ، ولهذا لم يخطر بباله قط أن دى سافريه سيتمكن يوما من غزوه فى قلب عرينه !

واطلق يدى رينيه ،وقال بصوت كالفحيح :

ــ اسمعى .. اذا أردت أن تعرفى رأيى عنك فأنت ..

وقذف فى وجهها بالكلمة النابية ، ثم استدار لينصرف .. ولكن رينيه أسرعت وراءه وهى تنتحب ، ثم طوقته بذراعيها قائلة بصوت كله توسل واستعطاف :

ــ مكسيم ياحبيبى .. يادنياى .. أقسم لك اننى احبك أكثر من حياتى .. ارجوك أن تصفح عنى .. لسوف تعرف مدى اخلاصى يوما ما .. نعم .. ارجوك .. ربما أستطيع أن أشرح لك كل شىء غدا ..

ولكن مكسيم تخلص من عناقها ، واندفع فى طريق الخروج وهو يهتف قائلا :

ــ لا .. لا .. لقد انتهى كل شىء بيننا ! ..

وتسمرت رينيه فى مكانها ، وهى تراه ينصرف . وامتلأت نفسها بشعور من اليأس القاتل . واخيرا استدارت ، وعادت الى جناحها وقد شعرت فجأة بالبرد القارس ، ولما سألها زوجها عن سبب غيبتها ، قالت انها فقدت مفكرتها الثمينة وذهبت للبحث عنها ..

ولما رقدت فى الفراش ، عاودها الشعور باليأس والندم . لماذا لم تخبر مكسيم بالحقيقة ؟! . أو على الاقل ، لماذا لم تخدعه وتقول له ان اباه تبعها الى غرفة نومها لكى يتحدث معها عن بعض الشئون المالية ؟ !

وكان ساكارد قد قرر أن يوجه ضربته الاخيرة للحصول على أراضي شاردن في اليوم التالي .. ان زوجته ملك له ، وانها لتستكين بين زراعيه ناعمة كأن جسدها مخلوق من اوراق الورد .. فلماذا لا يحاول ارضاء وارواء مثل هذا الجسد الذى يتمناه كل رجل .. وأى رجل !

ومن ناحية أخرى كان طريق الامير يوجين المار بأراضى شاردن قد تقرر شقه أخيرا .. ومن ثم ينبغى أن يبادر بالحصول على هذه الاراضى قبل أن يذاع الخبر ، وتعرف رينيه أن أراضيها يمكن أن تباع بالمتر وبسعر مرتفع !

ولكنه ـ كأى محتال بارع ـ كان ينوى أن يقدم لزوجته مائة الف فرنك كهدية من عنده ، بعد أن تتم الصفقة ، حتى لا تشعر بالمرارة عندما تعلم فى يوم ما انه هو المشترى الحقيقى لتلك الاراضى .. !

ولكن عليه ـ قبل أن يوجه هذه الضربة الاخيرة ـ أن يذهب الى لارسونيه ، ويتفاهم معه على التفاصيل النهائية ، وعلى نصيبه الكامل فى أرباح هذه الصفقة ..

وكان ساكارد يخشى دائما ـ رغم الاتفاق بينه وبين لارسونيه على أن يتقاضى كعمولة عشرين فى المائة من كل صفقة ـ أن يطمع الرجل ويطالب بنصف الارباح فى هذه العملية الضخمة !

وقد توقع ماكان يخشاه عندما ذهب الى مكتبه للاتفاق على التفاصيل الاخيرة .. وبعد مناقشة عنيفة بين الشريكين ، اتفقا على أن يكون نصيب لارسونيه ثلاثين فى المائة من الارباح مقابل تقديم كل ماقد يحتاج اليه ساكارد من مال نقدى لاتمام الصفقة ..

وبعد أن اتفقا ، وتصافيا ، وتصافحا .. قال ساكارد متحدثا عن « صفقة » أخرى تهم مدام لورا دورينى التى يعتقد المجتمع الباريسى أنه « رجلها » وعشيقها :

ـ انك ستذهب الليلة الى لورا .. اليس كذلك ؟ .. اذن سوف نلتقى هناك بعد أن أكون قد فرغت من اقناع رينيه بان تبيع أرضها فى شاردن

***

وكانت لورا دوريني ـ التى اعتادت الانتقال من مسكن الى

آخر ــ قد استقرت عندئذ فى مسكن كبير بشارع هوسمان . وكان من عادتها ، كسيدة مجتمع ، أن تخصص يوما فى الاسبوع لاستقبال الزائرين والزائرات . وكان هذا التقليد يتيح لها فرصة زيارة أصدقائها من الرجال ــ منفردين ــ طيلة بقية أيام الاسبوع ، دون أن تفاجأ بزائر غير مرغوب فيه ! ..

وكان أرستيد ساكارد ينتشى زهوا فى يوم الزيارة الاسبوعى ــ وكان يوم ثلاثاء ــ باعتباره « حامى حمى » لورا دورينى وصيفة البلاط الامبراطورى . ومع ذلك ، كان يدير وجهه ويتظاهر بعدم رؤية شيء عندما تتواعد لورا مع رجل آخر ــ بالقرب منه ــ لكى يعود اليها فى نفس الليلة بعد انصراف الزائرين !

وكان من عادته أن يبقى بعد انصراف آخر زائر ، حيث يدخن سيجارا ويتناول بعض الاحاديث والدعابات مع لورا ، ويربت خدها قائلا لها انها « طفلته العزيزة » .. كل هذا وهو يعلم تماما أن « عشيق الليلة » واقف فى الخارج ينتظر انصرافه على أحر من الجمر !

واخيرا ينصرف ساكارد من باب ، ليدخل العشيق المنتظر من باب آخر ! ..

والواقع ان ساكارد لم يكن عشيقا حقيقيا للورا دورينى ــ على عكس ظنون الكثيرين ــ وانما كان شريكا لها فى اتمام صفقات مريبة تحتاج لاتمام عقدها الى سيدة من نوع لورا دورينى !

على أن لورا سئمت هذا الوضع اخيرا ، وطالبت ساكارد بأن يضع له نهاية . ولم يتردد ساكارد فى الاتفاق معها على الخطة التى تستلزمها هذه النهاية .. اتفق الاثنان على أن يختارا « مغفلا » معروفا فى المجتمع الباريسى ، يكون لديه من المال الشيء الكثير ، أو ينتظر انه يرث الشيء الكثير . ثم يعلن ساكارد ــ بكل بساطة أمام الزوار ــ بأن « حامى حمى » لورا دورينى الجديد هو ..دىروزان

وكان الاختيار قد وقع على الدوق دى روزان ، المغفل الشاب الواله بحب لورا دورينى ، ليكون « العشيق الرسمى » الجديد لها .. وكان الدوق الشاب يتمنى بدوره ان يضع حدا لعلاقاته الغرامية التافهة ، حتى يصبح فى نظر المجتمع عشيقا لشخصية

مشهورة ترفع من « مكانته » بين الجميع ..
وكان اختياره أيضا قد وقع على لورا دورينى لتحقيق هذا الهدف .. فراح يكثر من زيارتها ، ويتوسل اليها أن « تسبغ » عليه عطفها ورضاءها وأن تعلنه « عشيقا رسميا » لها !
ورغم أنه كان يعتمد فى نفقاته على أمه الطائلة الثراء ، فقد وضع ساكارد ولورا الخطة التى يمكن بها للوزا أن تظفر من هذا المغرم الولهان بكل ماتريد من أموال ..
وكان الاتفاق قد تم على تنفيذ هذه الخطة فى تلك الليلة التى تقرر ان يلتقى فيها لارسونيه بساكارد فى مسكن لورا ..

***

عندما وصل لارسونيه الى قاعة الاستقبال بمسكن لورا دورينى، لم يكن بها غير خمس او ست سيدات . وسرعان ما أحاطت هؤلاء به ، ورحن يداعبنه ويسمينه « لار الكبير اللطيف » . . وضحك هو قائلا :
ـ مهلا مهلا ياحماماتى . . انكن ستحطمن ضلوعى بكل هذا العناق ! . .
ثم جلس بينهن ، وراح يقص عليهن آخر أنباء الفضائح فى المجتمع .. وكان فى خلال الحديث قد أخرج كيسا مليئا باللوز المحمص وراح يوزعه عليهن . وسرعان ما أقبلت لورا من غرفة نومها ، بعد أن توافد عدد من الزائرين الرجال .. ثم اشارت الى لارسونية لكى يتبعها الى غرفة الزينة الصغيرة الملحقة بمخدعها ، والمنفصلة عن غرفة الاستقبال بستائر من المخمل ..
ولما أصبحا على انفراد ، قالت له :
ـ هل أحضرت المبلغ ؟
فوضع لارسونيه يده على جانب صدره ، مشيرا الى جيب سترته الداخلى ، وانحنى قائلا :
ـ تحت أمرك ..
فهتفت المرأة فى ابتهاج واضح :
ـ أوه ، يالك من مراب مخلص لطيف أيها الكبير لار !
ثم عانقته وقبلت شفتيه بحرارة ، وقالت :
ـ انتظر .. اننى فى حاجة الى هذا المبلغ فورا .. ان الدوق

دى روزان فى مخدعى الان . لسوف آتى به حالا

ولكن لارسونيه امسك بها ، وعانقها بدوره .. وكاد يلتهم شفتيها فى قبلة ملتهبة ، وهو يقول :

ـ انك تعرفين طبعا ما هى عمولتى ؟

فقالت بخبث ، وهى تتظاهر بعدم الفهم :

ـ خمسون فى المائة .. اليس كذلك ؟

ولكنه قال دون أن يفطن الى خبثها :

ـ لا .. لا .. العمولة الاخرى !

وهنا ضحكت ، وقالت وهى تقبله مرة اخرى :

ـ لو أنك تنازلت عنها ، لما رضيت انا .. انتظر فى الخارج بعد أن ينصرف الجميع ..

وانفلتت من ذراعيه .. وبعد أن غابت لحظات ، عادت ومعها الدوق دى روزان الشاب .. وتصافح الرجلان بغير حرارة ، وأخذا يتبادلان الحديث برهة عن السياسة وسباق الخيل ، الا أن نورا دورينى قطعت حديثهما قائلة :

ـ لندخل فى الموضوع فورا ياعزيزى دى روزان . ان السيد لارسونيه احضر المبلغ .. ويحسن أن ننتهى من هذا الامر حتى أعود الى الزوار ..

وتظاهر لارسونيه بأنه تذكر الامر فجأة ، وقال :

ـ آه .. ان المبلغ معى ياسيدى الدوق . ولكن .. كم كنت اتمنى لو انك استمعت الى نصيحتى ..

ثم اشعل سيجارا قبل أن يستطرد قائلا :

ـ ان هؤلاء المرابين الافاقين رفضوا تقديم المبلغ الا بفائدة لاتقل عن خمسين فى المائة . وعلى اية حال ، فقد وافقت على طلباتهم حسب رغبتك ..

وكانت لورا دورينى فى تلك اللحظة قد احضرت عددا من الكمبيالات المطبوعة . وقد قالت وهى تضعها على المنضدة امام الرجلين :

ـ ان الدوق الحبيب لايهمه كثيرا أن تكون الفائدة خمسين فى المائة أو الف فى المائة .. اليس كذلك ايها الحبيب ؟

ونظر دى روزان اليها فى هيام وقال :

ــ ان الدنيا بأسرها ياحبيبتى لا تساوى لمسة من يديك

وقال لارسونيه للدوق ، وهو يقدم اليه القلم الذى غمس سنه فى محبرة من الفضة الخالصة :

ــ اكتب هذه الكمبيالات باسمى .. اننى لا أريد أن أدخلك فى منازعات مالية مع أولئك الاوغاد .. ان صداقتى للورا تحتم على ان اقوم انا بتحصيل المبلغ حتى لا يعرف احد غيرنا انك الشخص المدين .. آه ، هذه ست كمبيالات .. اجعل قيمة كل منها خمسة وعشرين الف فرنك ..

وكان لارسونيه فى خلال هذه الفترة قد وضع المبلغ على المنضدة .. فأسرعت لورا وأخذت تحصيه ، بينما انهمك الدوق دى روزان فى كتابة الكمبيالات دون أن يهتم بالقاء نظرة واحدة على رزمة الاوراق المالية ..

ولما رفع الدوق رأسه ، بعد أن وقع على الكمبيالات ، كانت رزمة الاوراق المالية قد اختفت فى صدر لورا دورينى .. ونهضت هذه من مكانها وقبلت الدوق بحرارة وهى تقول :

ــ لا أدرى كيف أشكرك ياحبيبى ! ..

وفيما هى مستغرقة فى عناقه ، رفع ساكارد طرف الستارة الفاصلة بين الغرفة الصغيرة وقاعة الاستقبال ، ثم قال ضاحكا عندما اضطرب الدوق ، وحاول أن يتخلص من ذراعى لورا :

ــ لا .. لا .. لا عليك .. دعك منى ..

وتبادلت لورا معه غمزة بالعين ، ثم قالت :

ــ أرجو يا ارستيد الا تكون غاضبا منى ؟ .

ــ ولماذا أغضب ياعزيزتى ؟ ان الشهامة تحتم على العاشق القديم أن يخلى الجو للعاشق الجديد فى بساطة ونبل !

ثم أزاح الستارة تماما ، وقال للمدعوين مشيرا الى الدوق دى روزان الفارق بين ذراعى لورا :

ــ أيها السادة .. أقدم اليكم الفارس الجديد لمدام دورينى الحسناء . أو على الاصح .. الدوق والدوقة روزان !

وحققت هذه الفكاهة نجاحا ضخما ، اذ استمرت الصحف تتحدث عنها طيلة الاسبوع ! ..

الفصل التاسع

مكسيم يكتشف الحقيقة

وأسدل ساكارد الستـــارة على دوى الضحكات المنبعثة من الزائرين والزائرات ، ثم قال للارسونيه حين انفرد معه فى غرفة الزينة الصغيرة ، بعد ان غادرتها لورا مع الدوق :

ـ لاشك انك خرجت من هذه الصفقة بنصيب الاسد أيها الخبيث لارسونيه ؟ هه .. اخبرنى ..

فحاول لارسونيه أن يحتج ، ولكن ساكارد قال له وهو يجلسه بجانبه على المتكأ القريب من الستارة :

ـ حسنا .. حسنا .. لا عليك .. انني لن أطالبك بجزء من الارباح . والان ، لنتحدث فيما هو أجدى .. هل تعرف أننى تحدثت اليوم طويلا مع زوجتى حتى نجحت اخيرا فى اقناعها !

فقال لارسونيه مدهوشا :

ـ هل وافقت اخيرا على بيع ممتلكاتها الزراعية فى شاردن ؟ !

فأومأ ساكارد برأسه وقال :

ـ نعم ، ولكن الامر لم يكن سهلا .. وانت تعرف كيف يستبد العناد بالمرأة أحيانا ، لاسيما اذا كانت قد وعدت عمة عجوزا بعدم بيع أراض كهذه . ومن سوء الحظ أن زوجتى واحدة من اللواتى يقمن للمبادىء الاخلاقية وزنا كبيرا .. لقد اعتبرت عدم وفائها بالوعد الذى قطعته على نفسها بعدم بيع هذه الاراضى خطيئة كبرى ..

ـ اذن كيف أقنعتها ؟ !

فنهض ساكارد واشعل سيجارا من القنديل الذى تركته لورا على النضد .. ثم عاد الى المتكأ ، وبسط ساقيه فى استرخاء وقال :

ــ قلت لزوجتى أنك يا عزيزى لارسونيه على وشك الافلاس التام بعد ان ضاربت فى البورصة بمبالغ ضخمة ضاعت كلها ، هذا فضلا عن بعثرتك للاموال على النساء ، واشتراكك فى كثير من المشروعات الفاشلة . وباختصار أفهمتها أنك على وشك الافلاس ، وأنك تريد استرداد ديونك عليها فى أقصر وقت حتى تستطيع أن تنقذ نفسك .. ولأنك لا تملك فى الوقت الحاضر مبالغ نقدية تسدد بها هذه الديون التى بلغت بفوائدها نحو نصف مليون فرنك ، فانك ستضطر الى توقيع الحجز على أراضيها فى شاردن وبيعها بالمزاد العلنى الذى قد يهبط قيمتها الى النصف

فقال لارسونيه فى ارتياب :

ــ وهل تعتقد ان زوجتك انخدعت بهذه الاكذوبة ؟

فضحك ساكارد وقال :

ــ ليست الاهمية فى الاكذوبة يا عزيزى ، وانما فى طريقة السرد وفى التفاصيل والحواشى المحيطة بها .. استدع ذلك الدوق دى روزان ، وانا استطيع ان اقنعه بأننا الان فى وضح النهار . نعم يا عزيزى .. ليس هناك أقوى من سحر الكلمة اذا عرفت كيف تقولها فى الوقت المناسب ، وبالطريقة المناسبة . والمهم أننى افهمت زوجتى انك على استعداد لشراء هذه الاراضى مقابل الديون التى عليها ، رغم انها لا تساوى اكثر من ثلاثمائة الف فرنك، وأنك مستعد ايضا لاعطائها مائة الف فرنك نقدا ..

فقاطعه لارسونيه قائلا :



ــ الم يداخلها الشك عندئذ ؟

ــ لا ياعزيزى .. ان كل ما فكرت فيه عندئذ هو حصولها فورا على مائة الف فرنك بدلا من الدخول فى منازعات قضائية طويلة من المرجح أن تنتهى بضياع الاراضى دون أن تحصل على شيء ..

فهز لارسونيه كتفيه وقال :
ـ كنت أفضل لو أنك ابتكرت لها اكذوبة أخرى .. ولكن ، لكل انسان طريقته .. المهم انها وافقت .. أليس كذلك ؟
ـ نعم .. وكل ما أريده الآن هو أن أحمل اليها عقد البيع لكى توقع عليه ، ثم اقدم اليها المائة الف فرنك .. اعنى سأقوم انا بنفسى بهذا العمل حتى لا تقابلها ، لأننى أخشى ألا تنجح فى تمثيل دور المالى الكبير الموشك على الافلاس !
ومرة أخرى ، هز لارسونيه كتفيه وتناول من جيبه الكمبيالات التى تدين رينيه بنصف مليون فرنك ، ثم قال :
ـ ان عقد البيع لديك كما تعلم .. وهذه هى الكمبيالات .. وغدا سأحضر اليك المائة الف فرنك .. ولكن ..
ثم أردف قائلا ، وكأنما تذكر شيئا :
ـ أفهمت زوجتك أن ثمن الاراضى المدون فى عقد البيع سيكون مليونا ونصف مليون جنيه .. ؟!
ـ طبعا ياعزيزى ..
ـ ألم يساورها الشك فى هذا الاجراء ؟
ـ انها الآن فى حالة لا تسمح لها بالشك فى أى شىء .. وحتى لوساورها الشك ، فانها لن تستطيع ان تفعل شيئا مادمت أنت ممسكا بغدارة مصوبة الى راسها .. وعلى أى حال فان رينيه لم تفهم شيئا اكثر من انها تريد المائة الف فرنك فورا ، وبأى ثمن ،
ثم نهض وتناول ذراع لارسونيه ، وقال وهو يتجه به نحو قاعة الاستقبال :
ـ ما عليك يا عزيزى الا ان تنفذ تعليماتى وسوف تصفق لى بعد ذلك . . .





ولما خرج الرجلان من غرفة الزينة الصغيرة ، فوجىء ساكارد برؤية ابنه مكسيم جالسا على متكأ قريب من الستارة ، فى الجهة الاخرى ، وكانت تجلس بجانبه فتاة شقراء تقص عليه نبأ فضيحة مضحكة .. وخشى الوالد أن يكون ابنه قد سمع حديثه مع لارسونيه ؟ الا ان وجه مكسيم الهادىء طرد هذا الخوف من

نفسه . والواقع ان مكسيم سمع كل شيء ، وشعر بسرور خفى لان أباه ينوى انيخدع رينيه فى هذه الصفقة .. ولماذا لايفعل مادامت تخدعه كل ليله مع عشيق ؟

وصافح الوالد ابنه فى ارتياب ، ولكن مكسيم قال له بهدوء مشيرا الى الفتاة الشقراء :

ـ انها كما ترى جميلة جذابة .. لسوف أقضى الليلة معها .. !

وضحك الوالد .. واشترك مع بعض الزائرين فىسؤال مكسيم عن سر غيبته أو اختفائه معظم الاشهر السابقة ، فقال الشاب باسما :

ـ كنت مشغولا بكتابة مسرحية من نوع المأساة ، وقد وصلت امس الى المنظر الاخير .. ومن حقى أن استريح

وعندما انصرف معظم الزائرين ، اقترب الدوق دى روزان من لورا دورينى وهمس لها :

ـ لسوف اتخلف هنا بعد انصراف الجميع ..

فقالت لورا ، وهى تمسك راسها بين يديها :

ـ لا .. لا ياحبيبى .. ليس الليلة .. ان الصداع يزلزل رأسى غدا .. اعدك بهذا ..

ولم يسع الدوق الشاب الا ان يطيع ..

وفيما هو يهم بالانصراف همست لورا فى اذن لارسونيه قائلة :

ـ اهبط معه واصحبه حتى يستقل المركبة وينصرف . ثم عد .. اننى لن اتخلى عن وعدى لك ..

وقال ساكارد لابنه مكسيم حين رآه لا يتبع الشقراء الحسناء عند انصرافها :

ـ لماذا لا تمضى معها يا مكسيم ؟

فقال الشاب :

ـ لقد عدلت عن قضاء الليلة معها .. ما رأيك يا أبى لو تنازلت لك عنها ، اسرع والحق بها قبل أن تنصرف ..

فضحك ساكارد وقال :

ـ لا .. اننى غارق الى اذنى هذه الليالى مع من هى أجمل منها

وهبط الرجال الأربعة الى رصيف الشارع حيث كانت مركبة

الدوق فى انتظاره .. فلما استقلها وانصرف بها ، تلكأ لارسونيه قليلا ، وعندئذ قال له ساكارد :

ـ لا داعى للشعور بالحرج أيها الثعلب الماكر .. اصعد ولا تدع لورا تنتظرك طويلا ..

وحاول لارسونيه أن يحتج ، ولكن ساكارد دفع به الى مدخل البيت ضاحكا .. ثم وضع ذراعه فى ذراع ابنه مكسيم وسار معه فى الطريق الى القصر . وكانت الليلة من الليالى الصافية رغم برودة الهواء .. وفى اثناء سيرهما ، اخذ الوالد يتحدث الى ابنه فى مختلف الموضوعات ، الى ان قال :

ـ لقد اكتشفت اخيرا يا مكسيم ان هذه العلاقات الغرامية لا تستمر واسوأ من هذا انها تضر بصحة الرجل اشد الضرر .. ليس افضل من ان تقتصر علاقة الرجل الجنسية بزوجته فقط !

ثم ضحك أردف قائلا :

ـ وانا لا اقول هذا بدافع المحافظة على الاخلاق العامة ، وانما بدافع التجارب الكثيرة التى مررت بها .. ولكى تصدقنى أقول لك اننى قررت الاستقرار فى حياتى الزوجية ..

فأرسل مكسيم ضحكة قصيرة تنم عن الشك ، ولكن الوالد قال له :

ـ اضحك كماشئت .. ولكننى أكرر لك القول ان الزواج فقط هو الذى يحفظ على الانسان صحته وسعادته ..

ثم راح يتحدث معه عن لويز ، وعن اتفاقه مع والدها على اتمام عقد الزواج يوم الثلاثاء الاول من الشهر التالى ، وعلى اقامة حفلة فاخرة ، بقصرة فى يوم الخميس السابق عليه لاعلان هذا الزواج أمام المدعوين جميعا ..

وأعرب مكسيم عن موافقته على هذه الاجراءات كلها ، لا سيما بعد أن شعر بالرضى لقطع كل علاقة بينه وبين رينيه .. وعاد الوالد يقول :

ـ ولاتنس أن المليون فرنك «الدوطه» سوف تؤول اليك وحدك فى حالة وفاة لويز ..

وأومأ مكسيم برأسه ، ثم قال فجأة :

ـ المهم الا يعلم أحد بأمر هذه الاتفـاقيات ـ ولاسـيما رينيه وصديقاتها ـ حتى لحظة اعلانها يوم الخميس .. !

وو عد ساكارد بأن يخفى الخبر حتى يوم الحفلة .. وعندما اقتربا من القصر ، قال ساكارد ناصحا :

ـ وأنصحك الا تقطع علاقتك بزوجتك يوما ما .. انها حماقة كبرى تكلفك غاليا ، لأنك ـ فى هذه الحالة ـ ستضطر الى الانفاق على هـذه العشيقة أو تلك ؟ هذا فضلا عـن نفقـات الحيـاة الزوجيـة . .

وبعد برهة صمت ، قال مستطردا :

ـ أرجو ألا ترتكب الاخطاء التى ارتكبتها أنا .. ولكننى أحاول ان اصلح الامر بقدر ما استطيع !

فنظر مكسيم اليه فى دهشة وقال :

ـ تعنى أنك .. ؟

ـ نعم منذ ستة اسابيع وانا أعيش حيـاة زوجية حقيقية مع رينيه .. اننى اذهب الى جناحها مباشرة فى كل ليلة اعود فيهـا الى البيت قبل منتصف الليل .. ولكن الليلة ستضطر العـزيزة المسكينة انتقضيها بدونى ، لان لدى اعمالا ستستغرق منى الليل كله ..

ثم أردف قائلا ،كانما يحدث نفسه :

ـ لست ادرى كيف كنت غافلا عن جمالها وجاذبيتها .. هـل تعرف الممثلة الفاتنة بلانش موللر يا مكسيم ؟ ان رينيه اجمل منها الف مرة ..

وحاول مكسيم جاهدا ان يخفى انفعالاته ، ثم انتهز اول فرصة سانحة وصافح أباه ، وانصرف مسرعا فى الطريق الى مسكنه الخاص

وكان وهو يسير لايكف عن محادثه نفسه : اذن فقد ظلمت رينيه حين ظننت انها كانت امس بين احضان رجل اخر ، بينما كانت فى الواقع بين ذراعى ابى .. زوجها ..!

وتوقف عن المسير فجأة ثم عاد أدراجه فى الطريق نحو قصر ابيه .. لقد شعر فجأة برغبـة عارمة فى زيارة رينيه والتماس الصفح منها ؟ لقد شعر بأنه لن يستطيع ان ينام ليلة دون انتغفر له سوء ظنه بها ..!

الفصل العاشر

عودة إلى سعير الحب

ولم يكد مكسيم يصل الى مدخل الحديقة الشتوية أمام الجناح الخاص برينيه حتى ارسل صفير الاشارة المتفق عليها بينه وبينها .. ولم ينتظر فى هذه المرة طويلا ، اذ ما لبث أن رأى رينيه تفتح باب غرفة الجلوس التى تقع فى مدخل الجناح ، ثم تعود الى الداخل دون أن تلفظ بكلمة . وكانت فى تلك اللحظة ، قد وصلت لتوها من حفلة راقصة فى فندق دى فيل . ومن ثم لم تكن بعد قد خلعت ثوب السهرة الحريرى الفاخر الذى كان يكشف عن نحرها وذراعيها ويبرز جمال صدرها ، وينساب على نصف جسمها الاسفل فى اغراء مثير ..

وهناك ، فى قلب مخدعها الخاص ، راح مكسيم يتطلع اليها فى شوق الحبيب العاشق الذى هجر حبيبته وهو أشد ما يكون ظمأ اليها ..

وكانت هى مضطربة الوجه ، لاهثة الانفاس ، تنم تصرفاتها المرتبكة على انها لم تكن تتوقع مجيئه فى تلك اللحظة

ولم يستطع أحد العاشقين أن يقول شيئا ، لان سيلست كانت فى الغرفة ، تعد لسيدتها قميص النوم الحريرى الشفاف .. والواقع انهما لم يكونا يهتمان كثيرا بوجود سيلست فى الغرفة ـ من قبل ـ ولكنهما فى هذه الليلة ، وبعد قطيعة الامس ، شعرا بالارتباك والحرج ، ولم يدر كل منهما ماذا يقول للاخر أمام الوصيفة ..

وطلبت رينيه من سيلست أن تخلع عنها ثوب السهرة فى المقصورة الفاخرة الملحقة بالمخدع • وبينما سيلست تقوم بهذه المهمة التى تستغرق لحظات طويلة ، رأى مكسيم أن يشغل وقته بعمل ، فتناول ـ كعادته من قبل ـ قميص النوم الحريرى الشفاف، وأمسك به بالقرب من المدفأة التى كانت النيران تئز فيها بقوة ، وراح يشحنه بالدفء الممتع ليكون معدا لرينيه حين تفرغ من خلع ملابسها ••

ولمحته رينيه وهو يفعل ذلك كما كان يفعل فى أيام حبهما فامتلأ قلبها بالتأثر والحنين ، وعاودها الشوق الملتهب الى ذراعيه ، والى قبلاته ، والى استسلامه الممتع لعناقها وحرارة ضماتها ••

وقال لها اخيرا محاولا ان يقطع ذلك الصمت الثقيل المخيم على الغرفة :

ـ هل استمتعت بحفلة الليلة الراقصة ؟

فاجابت فى ملل :

ـ لا •• انها كاى حفلة اخرى من هذا النوع •• لاجديد فيها

ثم أردفت قائلة :

ـ كان الزحام كالمعتاد شديدا حتى شعرت بالاختناق ••

وقال وهو يقلب القميص على الجانب الآخر أمام المدفأة :

ـ ماذا كانت ترتدى أديلين ؟

وابتسمت رينيه وهى تذكر اهتمام مكسيم بالملابس النسائية وقالت :

ـ كانت ترتدى فستانا من الحرير البنفسجى ردىء التفصيل •• انها كما تعلم قصيرة ، ومع ذلك فقد اكثرت من تزويده بالكرانيش ••

وأخذا يتحدثان عن نساء اخريات •• ونسى مكسيم القميص الذى بين يديه فكادت النار ان تصل اليه لولا أن قالت له رينيه بصوت ناعم :

ـ حذار ياعزيزى •• ان القميص سيحترق ••

واسرعت سيلست اليه ، وتناولت القميص منه ، وكانت

رينيه قد خرجت من المقصورة وهى تكاد تكون عارية .. ومن ثم استدار مكسيم نحو السرير الكبير ، وراح يتأمل الزخارف الذهبية التى تزينه ، وذلك كى يستمتع بالنظر الى جسم رينيه ، ولا سيما صدرها النافر ..

وكان يشعر - فى تلك اللحظة رغم لهفته عليها - انها لم تعد عشيقته ، وأنه من ثم لا يحق له أن ينظر الى هذا الجسد الذى طالما اضرم النار فى دمائة .. ثم اطفأها .. !

واخرج من جيبه سيجارا وراح يدخنه . وكانت رينيه قد أذنت له من قبل بالتدخين فى مخدعها ، وأخيرا انسحبت سيلست من المخدع تاركة سيدتها بجوار المدفأة ، مرتدية قميص النوم الشفاف الذى لا يكاد يحجب من جسدها شيئا .. !

وظل مكسيم يتحرك فى الغرفة لحظات أخرى دون أن يقول لرينيه شيئا ، أو يوجه اليها نظرة .. وأخيرا استدار نحوها وهى جالسة بجوار المدفأة ، وقال وهو يرى الرعدة التى انتفض لها جسدها :

- لماذا لم تخبرينى بالحقيقة يارينيه ؟ !

فتطلعت اليه متسائلة .. وقبل أن تقول شيئا ، أردف هو قائلا :

- أعنى لماذا لم تقولى لى انه ابى الذى كان معك ليلة الامس ؟

وهنا نظرت اليه بعينين مفعمتين بالالم الصارخ ، ثم اذا بالدماء تلهب وجهها بعنف .. واذا هى تخفى هذا الوجه بين يديها من فرط الشعور بالخجل والعار ، وأخيرا تتمتم :

- هل عرفت هذا ؟ هل عرفت .. ؟

ثم استردت رباطة جأشها وحاولت ان تكذب قائلة :

- لا .. لا .. ليس هذا حقا .. لم يحدث هذا ..

وهز مكسيم كتفيه ، وقال :

- ان أبى نفسه هو الذى قال هذا .. بل لقد أعرب لى عن اعجابه الشديد بجمالك الذى يعتبره أروع ألف مرة من جمال بلانش موللر ..

وحرص مكسيم على ان يلون صوته بالاستياء وهو ينطق بهذه

العبارة ، ثم راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يستطرد قائلا فى لهجة تجمع بين العتاب والاعتذار :

– اننى لا أستطيع حقا أن افهمك ·· فأنت غريبة الاطوار الى حـد مذهل · واذا كنت قد عاملتك امس بقسوة ، فانت السبب ·· كان يجب آن تخبرينى انه أبى ، وعندئذ كنت انصرف بهدوء ·· فبأى حق أحرم عليك ممارسة حقوقك الزوجية ؟ ·· ولكنك بدلا من ان تصارحينى بهذه الحقيقة البسيطة ، تعمدت الـــكذب وقلت انه دى سافريه !

وراحت رينيه تبكى بصوت خافت ، وهى تخفى وجهها مرة أخرى وهنا أسرع مكسيم وركع امامها ، وأبعد يديها عن وجهها قائلا :

– أخبرينى .. لماذا قلت انه دى سافريه ؟ !

وقالت رينيه وهى لاتزال تبكى وتشيح بوجهها عنه :

– كنت أظن انك ستهجرنى اذا عرفت أن والدك عاد الى ..

وعندئذ نهض واقفا ، وتناول السيجار من فمه ، ونظر اليها برهة قبل أن يتمتم قائلا :

– حقا انك غريبة الاطوار الى حد لا يطاق ..

وجفت الدموع على وجهها .. جففتها النار المضرمة فى المدفأة ، والنار المتوهجة على وجنتيها من فرط الانفعال · وتحول خوفها وجزعها الى دهشة بالغة ، وهى ترى مكسيم لا يقيم لهذا الامر وزنا كبيرا ·· ان موقفه هذا الذى يدل على عدم المبالاة ، جعلها تنسى شعورها بالعار ، وترنو اليه وهو يزرع الغرفة ، وتنصت الى حديثه وكأنها فى حلم ومرة أخرى وقف امامها وعاد يقول :

– يالك من امرأة عجيبة غريبة ؟ ·· ولماذا أهجرك أو أغضب منك وأنت تســـلمين نفســـك لزوجك ؟ أليس هذا هو الوضع الطبيعى ؟ ·· أما الوضع غير الطبيعى وغير المفهوم ، فهو زعمك أن الذى كان معك أمس عشيق جديد ·· !

وفجأة قال مشفقا :

– يجب أن تكونى على حذر من هذه التصرفات ياعزيزتى ·· انها تدل على عقلية مختلة ·· !

ثم هتف مستفسرا :

ـ ثم لماذا ذكرت دى سافريه بالذات ؟

فهزت رينيه كتفيها وقالت :

ـ لانه ٠٠ لانه غازلنى فى الحفلة التنكرية !

وعاد الى السير فى المخدع جيئة وذهابا ، وراح يقول لها انه لم يعد غاضبا منها ، وأنه جاء ليعتذر اليها عن قسوته فى اليوم السابق ، وأنه يتمنى أن تظل علاقات الصداقة والموده قائمة بينهما بدلا من هذا الحب المجنون ، ولكنه لم يجرؤ على أن يخبرها بالاتفاقيات التى تمت بشأن زواجه من لويز ٠٠

وكانت هى تنصت الى حديثه متطلعة اليه بعينين لا يزال فيهما أثر البكاء ٠٠ وكانت فى أعماق نفسها ترى أنه مخلوق ضعيف محدود التفكير ، الا أنها كانت مع ذلك تحبه ، كما تحب أية امرأة أخرى كلبا عزيزا عليها ٠٠ وكان يبدو رغم ضعفه جميلا فى ضوء الشمعدان الفضى ٠ وكلما استدار نحو الضوء ، سقطت بعض خيوطه على شعره الذهبى ، وانسابت تضىء وجهه الناعم المضطرب الوجنات ٠٠

وكان فى خلال حديثه يردد هذه العبارة دون أن يقوم بالتنفيذ :

ـ يجب أن انصرف الان ..

وكان فى قرارة نفسه قد قرر أن ينصرف ، اذ كان يتوهم أن رينيه لن تدعه يبقى .. وقد قالت له ذلك .. وقال هو أخيرا انه لاداعى لبقائه ماداما قد أمسيا صديقين حميمين كما كانا من قبل .. وفيما هو أخيرا يضغط على يدها مصافحا ـ قبل الانصراف ـ استبقته رينيه برهة لتحدثه عن أبيه ، ولتتغنى بمديحه قائلة :

ـ أصارحك الحقيقة أننى شعرت بالندم الشديد للعلاقة بيننا.. وتمنيت لو أن هذا لم يحدث قط . ان اباك ـ كما اتضح لى أخيراـ انسان طيب ، عطوف ، منكر لذاته ، مستعد دائما لان يضحى بكل شيء من أجلى !

واحنى مكسيم رأسه ليخفى مشاعره ، وراح يتأمل حذاءه بينما استطرت هى تقول :

ـ اننى لم اكن أهتم كثيرا بأمره عندما هجرنى فى السنوات

الاخيرة ، ولكننى حين رايته يعود الى ، ملهوفا مشوقا مستعدا للبذل والتضحية ، مقدما الى المال الذى يجمعه من كل مراب فى المدينة ، معرضا نفسه للافلاس من أجلى دون أن يلفظ بكلمة احتجاج . . حين رأيت هذا كله منه ، شعرت بأشد الندم على مابدر منى ومنك فى حقه !

ثم أردفت فى النهاية قائلة :

ــ انك لاتعرف الى اى حد يهتم بمصالحى ! .

ولم يسع مكسيم أخيرا الا ان يقول دون أن يرفع عينيه عن حذائه :

ــ نعم .. نعم .. ان أهم مميزات ابى ، اهتمامه الدائم بمصالح الغير !!

وتعجبت رينيه من اللهجة التى نطق بها مكسيم هذه الكلمات ، ومن ثم نظرت فى احتجاج قائلة :

ــ انك لاتعرف الحقيقة عن أبيك يامكسيم ..

فأسرع مكسيم يقول :

ــ اننى لا أعرض بأبى .. كل ما اريد أن أقوله هو ان ابى رجل بارع جدا ..

ولكن رينيه لم تكتف بهذا الرد ، وقالت فى دفاع حار عن زوجها :

ــ انك تظلمه يامكسيم بسوء ظنك فيه .. ويبدو لى انك تحكم عليه حكما سطحيا قائما على تصرفاته الظاهرة . ولكننى لو ذكرت لك كل متاعبه ، ولو كررت على مسامعك ماقاله لى اليوم فقط ، اذن لعرفت مدى ظلم الناس له حين يحسبون انه لايهتم بشىء فى هذه الدنيا الا بالمال !

ولم يستطع مكسيم أن يحتمل من حديث رينيه عن أبيه أكثر من هذا ، فهز كتفيه وضحك ساخرا وقال :

ــ اننى اعرفه .. اعرفه تماما صدقينى .. ولا شك انه سرد على مسامعك الليلة بعض الاحاديث اللطيفة .. اخبرينى بها

وساء رينيه هذا التحدى ، فراحت تخبره بما بذله أبوه من جهود متوالية لانقاذها من كارثة مالية محققة ، وعن مساعيه لدى لارسونيه لكى يقبل شراء أراضيها فى شاردن مقابل الديون المستحقة

عليها ، ومائة الف فرنك نقداً .. وذلك بدلا من اتخاذ الاجراءات القانونية التى تعلن افلاسها أمام الجميع .. واستطردت تقول انها تشعر حقا أن ضياع هذه الاراضى من يديها يعتبر فى ذاته كارثة .. ولكنها ستتقبل الامر بخضوع تكفيرا عن خطيئتها ..!

وتركها مكسيم تتحدث كما تشاء ، وأخيرا قال وهو يرسل ضحكة قصيرة كلها سخرية وتهكم :

ــ أهكذا ؟ حسنا .. حسنا ..

ثم وضع يده أخيراً على كتفيها العاريتين ، وقال بصوت جاد :

ــ شكرا ياعزيزتى .. اننى اعرف هذا الموضوع . ويبدو لى انك طيبة القلب اكثر مما ينبغى !

وتحرك لينصرف .. وكان يشعر برغبة عارمة لكى يخبرها بكل شىء .. ذلك انها أثارت شعوره الشديد بالضيق ، وهى تتحدث عن أبيه بمثل هذا الحماس .. وهو الذى يتآمر مع لارسونيه على شراء أراضيها بأبخس ثمن . وكان فى قرارة نفسه قد أزمع ألا يخبرها بالحقيقة حتى يتجنب المشكلات والمنازعات ..

وقبل ان يصل الى الباب ، تشبثت به رينيه وقالت :

ــ ماذا تعنى بقولك هذا يامكسيم ؟!

فهز كتفيه وقال :

ــ أعنى انك ساذجة ، طيبة ، وربما حمقاء ايضا .. لقد عرف أبى كيف يستغل هذه المميزات كلها لتحقيق أغراضة منك .. ثم راح يحدثها بكل ماسمعه فى بيت لورا دورينى من حديث دار بين أبيه ولارسونيه .. حدثها بالمؤامرة الدنيئة التى دبرها الرجلان لانتزاع ملكية أراضيها فى شاردن قبل أن يبدأ تنفيذ شق الطريق الجديد المسمى طريق الامير يوجين .. وهو الطريق الذى سيحف بهذه الاراضى ويرفع ثمنها أضعافا مضاعفة ..

وظلت هى تصغى اليه ، وقد وقفت بجوار مدخنة المدفأة ، مطرقة الرأس ، تنظر الى جمرات النار المضطرمة ، وكأنها ــ فى غلالتها الرقيقة ــ تمثال من المرمر !

واختتم مكسيم حديثه قائلا :

ــ اننى اصارحك بهذا كله حتى تكونى على حذر ، ولا تدعى أحدا

يخدعك ، وأرجوك الا تغضبى من أبى .. انه له اخطاؤه ومساوئه مثلنا جميعا .. والان .. أرجو أن اراك غدا صباحا ..
وحاول أن ينصرف ، ولكن رينيه صاحت به آمرة :
ـ انتظر ..
ثم أمسكت به ، وجذبته اليها ، وقبلته وهى تقول :
ـ اذن من الحماقة أن نحرم أنفسنا من متعة الحب ، بعد أن ظهرت هذه الحقائق عن أبيك .. واحب ان اعترف لك اننى احبك بجنون يامكسيم .. أحبك الى حد لا أستطيع معه أن احيا بدونك.
لا تضحك .. ان هذه هى الحقيقة ياحبيبى مكسيم ..

ثم أرسلت اليه نظرة ملؤها الحب والحنان ، وأردفت قائلة بصوت يسيل عذوبة وهياما :
ـ انك على حق .. انك على صواب فى قولك اننى حمقاء ، ساذجة ، بحيث يمكن لابيك أن يجعلنى أرى الشمس فى بهيم الليل !
ثم أرسلت ضحكة مغتصبة وأردفت تقول :

ـ تصور .. لقد بلغ من تأثيره على ان أنى كنت على استعداد لان أركع أمامه لكى يقبل أن اوقع على عقد البيع ..
ثم ارسلت ضحكة عالية ، مجنونة ، وأطبقت على شفتيه بقبلة ملتهبة ، وعادت تقول :
ـ هل نحن الان نخطىء ؟ . لا ياعزيزى .. اننا نعيش فى الحب .. اننا نمتع أنفسنا بالطريقة التى تحلو لنا .. ان اباك يمتع نفسه بخداع الاخرين وسرقة أموالهم ، فهل ثمة ملام علينا اذا نحن استمتعنا بأنفسنا كما نشاء ، وبالطريقة التى نراها ؟ ولكن .. تأكد ياعزيزى .. ياحبيبى اننى لن اوقع له على شىء .. لسوف أجعل رأسه تدور من فرط الدهشة وخيبة الامل . والان .. هلم ياحبيبى الى حديقة الحب لنرتوى منها كما نشاء !.

وضمته اليها بقوة وأردفت تقول :
ـ وبهذه المناسبة لن اسمح له بدخول مخدعى مرة أخرى .. ذلك المحتال القذر .. !

ثم نهضت ، وأطفأت الشمعدان ، واشعلت الشموع الصغيرة الخاصة بالليل .. وبدأ يحس بالندم ، بعد أن ادرك الحماقة التى

ارتكبها ، وأنب نفسه بقسوة على افشاء سر أبيه لرينيه • والآن •• كيف يخبرها بالترتيبات التى تم الاتفاق عليها بشأن زواجه من لويز ؟ حسنا .. لقد ارتكب الخطأ وانتهى الامر .. وهاهى ذى رينيه تخلع قميصها الشفاف •• ولم يسعه الا ان يبقى !



ولما جاء ساكارد الى زوجته ، فى صباح اليوم التالى ، لكى توقع على عقد بيع أراضيها فى شاردن ، فوجىء برفضها ، وبأصرارها على الرفض ، وباستعدادها للدخول مع لارسونيه فى منازعات قضائية لا تنتهى ..

وكانت وهى ترفض التوقيع ، شديدة الحرص على أن تخفى عنه انها عرفت الحقيقة من أحد . لقد أرادت أن تجنب مكسيم كل نزاع بينه وبين أبيه ، خشية ان يتطور النزاع ويعجز مكسيم عن دخول قصر أبيه ..

والواقع انها رفضت التوقيع دون أن تهتم بشيء .. كان كل مايهمها أن تنتقم من زوجها بسبب خداعه لها . أما هو ، فقد استشاط غضبا وكاد أن يكشف عن خدعته لها . ولكنه راجع نفسه ، وكظم غيظه ، رغم ادراكه أن كل أعماله ومشروعاته انهارت تماما أو على وشك الانهيار ، وانه لم يعد قادرا على الاستمرار فى هذا اللون من الحياة الا بالخداع والتحايل فى انتظار وقوع معجزة تنقذه ..

وكان يعتقد أن المعجزة المنتظرة هى حصولة على أراضى شاردن .. فاذا استشاط غضبا وكشف حقيقة أمره ، فان هذه المعجزة ستفلت منه الى الابد . ومن ثم قرر أن يكبت مشاعره ، وينتظر فرصة أخرى لتحقيق الهدف ..

ورغم أنه كان عاجزا عن تسديد ديونه للخباز والسائق والخدم ، وعن دفع الاقساط الضخمة الخاصة بالقصر والمفروشات ، فقد كان يعد العدة لاقامة حفلة باهرة يوم الخميس الذى سيعلن فيه زواج ابنه مكسيم بالفتاة لويز ..

وغادر زوجته وقد تأكد لديه أنها على اتصال بعشيق ، وأن هذا العشيق هو الذى اقنعها بعدم التوقيع على عقد البيع ..

وقرر أن يعرف من يكون هذا العشيق ! ..

وذهب الى أخته مدام سيدونيه ، وقال لها فورا :

ــ ماذا تعرفين عن رينيه ؟

فلما نظرت اليه متسائلة ، أردف قائلا :

ــ أعنى عن حياتها الخاصة ..

وابتسمت المرأة فى خبث ، وقد ادركت أن أخاها قد بدأ يرتاب فى زوجته . وكانت فى اعماق نفسها تتمنى ان تنتقم من رينيه بسبب رفضها لمطالب دى سافريه منها ..

وقالت مدام سيدونيه لنفسها قبل أن ترد على أخيها : « لقد تظاهرت أمامى بالشرف .. حسنا .. لسوف نرى ؟ » . وقالت بصوت ماكر :

ــ لماذا تسأل ؟ ..

فلما أخبرها بالحقيقة ، قالت :

ــ حسنا .. حسنا .. اطمئن .. لسوف أعرف لك الحقيقة فى أقرب وقت ! .

ثم أردفت قائلة بصوت ملىء بالعطف المصطنع :

ــ آه يا أخى المسكين .. ان زوجتك الاولى ، أنجيل المسكينة ، ما كانت لتفكر أبدا فى خيانتك . أما هذه الباريسية اللعينة فانها ، مثل كل الباريسيات من مثيلاتها ، بلا قلب .. آه لو تعرف مبلغ مابذلت من جهود فى سبيل تقويمها واصلاح أمرها ! ..



الفصل الحادى عشر

المفاجأة ..

كانت الحفلة التى اقامها ساكارد فى يوم الخميس لاعلان خطبة ابنه مكسيم على لويز من الحفلات التى ظلت الصحف الباريسية تتحدث عن روعتها وبذخها اياما طوالا ..

لقد بدات بتابلوهات مسرحية ، وضع حوارها الشاعر دى نوى، واشتركت فيها أجمل سيدات المجتمع الباريسى ..

وفى أثناء الاحتفال ، كان ساكارد يتحدث مع لفيف من رجال الاعمال والمال عن الهبوط المتوالى فى البورصة ، وعن افلاس الكثيرين من الاغنياء الذين كان يحسبهم المجتمع الباريسى أمنع من أن يعرف الفقر الطريق اليهم ..

وكان ساكارد يبذل جهده لكى يبدو طبيعيا هادئا ، كأنما الامر لايعنيه فى قليل أو كثير .. وكيف يعنيه مايحدث فى البورصة وهو يقيم حفلة سوف تقيم باريس وتقعدها أياما متوالية !

أما فى قرارة نفسه ، فكان يدرك تماما أن افلاسه لن يطول أمد اعلانه كثيرا ، مالم تحدث معجزة تنقذه فى اخر لحظة ! ..

وبعد الانتهاء من التمثيل ، فوجىء الجميع برؤية رينيه تدخل قاعة الاحتفالات الكبرى مرتدية فستانا يكشف نصف جسمها الاعلى، وله فتحة جانبية تكشف عن ساقيها حتى منتصف الفخذين كلما سارت ..

وفغر المدعوون جميعا أفواههم دهشة وهم يحملقون اليها .. أما الرجال فقد لهثت أنفاسهم ، وتحلب لعابهم ، وسرت الهمسات بينهم فى وقت واحد وبعبارة واحدة :

ــ ياللجمال المذهل المثير ! ..

وأما النساء ، فقد أعربت عن رأيهن مدام دميشيلين وهى تنحنى على مدام سيدونيه وتهمس لها قائلة :

ــ يا للعار ! .. انها تكشف عن جسمها أكثر مما تحجب !

وبعد برهة ، أردفت تقول :

ــ أعتقد أن زوجى لابد أن يثور على اذا حدث يوما ورآنى فى ثوب كهذا ..

وأجابت مدام سيدونيه قائلة :

ــ وسيكون من حقه أن يثور طبعا !

وهمست لويز فى اذن مكسيم ، وهى تنظر الى رينيه ضاحكة :

ــ انها لم تكشف لنا كل هذا القدر من جسمها من قبل ..

ثم استدركت قائلة بخبث :

ــ أعنى لى أنا على الاقل ! ..

ونظر مكسيم اليها فى خوف وارتياب ، ولكن الفتاة استمرت تبتسم دون أن ينم وجهها عن شىء معين ..

وبدات الحفلة الراقصة ..

وراح المدعوون ، رجالا ونساء وشبانا ، يرقصون معا رقصات البولكا والفالس والمازوركا ، ويتبادلون العناق والقبلات المختلسة .. وبين الرقصة والاخرى ، كان هذا الشاب أو ذاك يتناول احدى المدعوات ويخرج معها الى غرفة أخرى ليواصلا العناق على انفراد

وبعد انتهاء الرقص ــ أو على الاصح بعد انتهاء الجزء الاول من الحفلة ــ فتح الخدم أبواب غرفة الطعام ، حيث كانت المائدة مثقلة بألوان وفنون من الطعام والشراب ، عدا المناضد الاخرى المتناثرة فى جوانب الغرفة ، وكلها تحمل نفس الوان الطعام والشراب ..

وانطلق المدعوون الى الموائد كالوحوش الكاسرة ، وراحوا يتخاطفون الوان الطعام بأيديهم ، ويتسابقون الى الشراب من الزجاجات مباشرة اذا أعوزتهم الكؤوس !

وقال رئيس الخدم الوقور ، السيد بابتست ، وهو يرى الايدى تتسابق فى جنون فى التهام الطعام :

ــ مهلا أيها السادة .. مهلا .. ان الطعام وفير ، ولدينا المزيد

منه بحيث لن يخرج أحد جائعا ..

ولكن أحدا لم يسمعه ، أو لم يهتم بأن يسمعه ، وظل السباق الى اختطاف الطعام على أشده .. ولم تكن النساء أقل هجوما وازدحاما على المائدة ، وهكذا اختلطت الضحكات بالصيحات بصرير الاشداق وهى تمضغ بسرعة مع رنين الكؤوس وفرقعة السدادات

وقال الشاعر دى نوى للمقاولين الكبيرين مينون وشاريير :

ـ اننا لن نظفر بشيء الا اذا تآزرنا معا .. اننى خبير بمثل هذه الحفلات ، لان قصر التويلرى يشهد كل ليلة ماهو أسوأ منها ..

ثم راح يرسم لهما الخطة قائلا :

ـ عليكما الحصول على الشراب ، وسوف آتى أنا باللحم والخبز ..

وكان الشاعر قد وضع عينه على فخذ خروف مشوى . ومن ثم انتهز اول فرصة سانحة ، ومد ذراعة من فوق رءوس الآكلين ، وحمل الفخذ بأكمله ، ثم دس فى جيوبه كمية من قطع الخبز .. وأسرع الى زميليه اللذين كان أحدهما قد استطاع أن يأتى بزجاجة براندى ، وتمكن الاخر من اختلاس زجاجتى شمبانيا ..

وراح الثلاثة يلتهمون اللحم فى نهم ، وقد مط كل منهم ذقنه حتى لا تتساقط قطرات الدهن على ملابسه ، ولا بأس من أن تتساقط على السجادة الفاخرة

ولما شرب شاريير زجاجته ، طلب من احد الخدم أن يأتيه بزجاجة أخرى .. وهنا قال له الخادم فى غيظ مكبوت :

ـ عليك أن تنتظر قليلا يا سيدى ، فقد شرب السادة حتى الان ثلاثمائة زجاجة من أجود أنواع الخمر ..

وبينما كان بعض الازواج غارقين فى الطعام والشراب ، كانت زوجاتهم غارقات فى شيء اخر مع بعض الرجال فى هذا الركن أو ذاك من أركان قاعة الاحتفال ..

أما مدام سيدونيه ، فقد راحت تتسلل هنا وهناك ، وتختلس النظرات ، وتسترق السمع .. آملة أن تعرف الحقيقة عن رينيه . وأخيرا غادرت قاعة الرقص التى عاد أليها الراقصون بعد الفراغ من الطعام ، ومضت تبحث عن ساكارد .. فلما عثرت عليه، انفردت

به وقالت له هامسة :

ـ انها لا تشترك فى الرقص .. ويبدو عليها القلق بوضوح ، وأعتقد أنها تنوى أن تقوم بعمل طائش . ولكننى لم أعرف بعد اسم العشيق .. ارجوك ان تأتى ببعض الطعام والشراب لكى أعود الى المراقبة بمعدة ممتلئة !

وسرعان ما وجدت مدام سيدونيه نفسها أمام دجاجة محمرة وبعض الشطائر وزجاجة خمر ..

أما رينيه ، فكان القلق هو الطابع الذى تتسم به حركاتها وتصرفاتها .. لقد رفضت أن تشترك فى الرقص ، وحاولت أن تشغل نفسها بالحديث ، فأخذت تتحدث عن عزمها القيام برحلة فى الجو بالبالون مع أحد الطيارين المغامرين ، ونظر اليها البعض فى دهشة ، وهم يحسبونها قد فقدت عقلها .. انها حقا تقوم بأعمال تقيم باريس وتقعدها ، ولكن لم يدر بخلد أحد أن تصل بها نزواتها الى حد القيام بمغامرة جوية بالبالون فى سماء باريس

وفجأة رأت رينيه زوجها مقبلا مع السيد دى لاردش والسيد دى موريل ، الذى عين عضوا بمجلس الشيوخ بمعاونة الوزير أيوجين ، شقيق ساكارد ..

وكان لاردش يقول لدى موريل :

ـ أرجو أن يسعد العروسان بهذا الزواج يا عزيزى ..

ـ آه يا سيدتى .. لقد نسيت أن اهنئك .. لا شك أن مكسيم سوف يستقر بعد الزواج فى حياة هادئة ..

ولما ابتسمت له فى دهشة ، أسرع ساكارد يقول :

ـ أن زوجتى لم تعرف بعد .. الواقع ياعزيزتى اننا اقمنا هذه الحفلة لاعلان زواج مكسيم من لويز رسميا ..

واستمرت رينيه فى ابتسامتها ، بينما أردف دى لاردش قائلا :

ـ لسوف تعقدون الزواج يوم الاحد .. أليس كذلك ؟ .. حسنا ، أرجوا ان أعود من ريتز فى ذلك اليوم لاشهده ..

وانصرف الرجال الثلاثة .. وبقيت رينيه بمفردها بعد أن

اختفت الابتسامة من وجهها . وظلت تحملق بنظرات جوفاء الى الستائر الذهبية وقد سرت فى جسدها رعدة باردة ، واخيرا قالت بصوت مرتفع :

ــ يجب أن أتحدث معه ..

واستدارت تبحث عن مكسيم بين الراقصين .. فلما لم تجده، شرعت تنتقل من غرفة الى اخرى ، وهى تزداد اضطرابا كلما مرت اللحظات دون أن تراه ..

وأحست بالاختناق .. ولم يعد يهمها الا ان تعثر على مكسيم بأى ثمن . وكلما سمعت رنين الضحكات ، وضجيج الموسيقى ، وحفيف الاثواب أثناء الرقص ، ازدادت شعورا بالاختناق ،وبالرغبة فى العثور على الشاب .. !

ولما تعبت ، استندت الى احد الجدران لتستريح ، وقد بلغ من شحوب وجهها أن اسرع أحد المدعوين اليها وهو يحسب انها ستقع مغشيا عليها .. لكنها صرفته مؤكدة انها بخير ، وانها شعرت فقط بدوار مفاجىء لفرط الضجيج الصادر من غرفة الرقص وذهبت اخيرا الى قاعة المائدة . وهناك ، بين بقايا الطعام والشراب ، رأت مكسيم ولويز جالسين الى ركن من المائدة ، جنبا الى جنب ، يأكلان فى هدوء ألوانا من الطعام التى استطاع مكسيم أن يأتى بها من المطبخ بنفسه ..

وتسمرت فى مكانها ، وهى تراهما يأكلان ويتبادلان الضحك والقبلات .. وكأنهما فعلا زوجان سعيدان يقضيان الايام الاولى من شهر العسل . وكان باتيست ــ رئيس الخدم ــ يقوم على خدمتهما بذلك الوقار المعروف عنه ..

وسمعت لويز تقول لمكسيم :

ــ أخشى أن يكون ابى قد انصرف ! ..

فقال لها مكسيم :

ــ اذن ستتاح لى الفرصة لاوصلك الى البيت ..

وفيما كانت تضحك ، استطرد مكسيم يقول :

ــ انت تعلمين أن زواجنا قد تقرر نهائيا .. وهذا طبعا امر خطير ، فماذا ستفعلين بعد عقد الزواج ؟

فقالت ببساطة :

ــ سنفعل طبعا ما يفعله غيرنا .. !

ولكنها أردفت قائلة ، وقد اضطرم وجهها خجلا :

ــ أعنى سنذهب الى ايطاليا طبعا .. فان هواءها سيحسن حالتى كثيرا ، والواقع اننى أشعر بالمرض الى حد كبير فى هذه الايام ياحبيبى ..

ولم تستطع رينيه أن تسمع اكثر من هذا .. فقامت بحركة لفتت بها نظر مكسيم ، ثم قالت له وهى تستدعيه باشارة من يدها :

ــ مكسيم .. أريد أن أتحدث معك لحظة على انفراد ..

ونظر مكسيم الى رينيه فى خوف وتردد ، وكأنما يخشى أن ينفرد معها فى مكان منعزل . وكانت رينيه فى تلك اللحظة تتمنى لو استطاعت أن تنشب أظافرها فى وجه الفتاة الحدباء لويز ، ولا تتركها الا جثة هامدة . ولما رأت تردد مكسيم ، عادت تقول بصوت اجوف حاسم :

ــ تعال بمفردك .. حالا ..

وقالت لويز وهى تنظر الى مكسيم بعينيها اللتين لا عمق لهما :

ــ لماذا لا تذهب ياحبيبى .. ؟ !

ثم اردفت قائلة وهى تغمز بعينيها :

ــ ولعلك تستطيع أن تعرف اين ذهب أبى ، فانه يتعمد دائما أن يختفى فى كل حفلة نحضرها سويا ..

ونهض مكسيم ، وذهب الى رينيه .. وحاول أن يستبقيها فى نفس القاعة وهو يسألها عن هذا الطارىء الملح الذى جعلها تسعى الى مقابلته على هذا النحو ..

ولم تدعه يستكمل حديثه ، وانما قالت بصوت كالفحيح :

ــ اتبعنى فى سكون ، والا اعلنت أمام الجميع كل ما بينى وبينك من علاقات غرامية ..

وامتقع وجهه بشـــدة ، وتبعها فى ذلة الكلب الذى ضرب ضربا مبرحا من سيده .. وخيل اليها أن باتيست ــ رئيس الخـــدم الوقور ــ راح يوجه اليها تلك النظرات الغامضة المليئة بالدهشة

والاستنكار • ولكنها لم تكن تحفل بشيء فى تلك اللحظات ••
واضطرت ــ للمرة الثانية ــ أن تتريث قليلا عند مدخل قاعة الرقص بسبب ازدحام الراقصين ، وهم يؤدون رقصة «السيتلون» المخبولة ، وعضت مرة أخرى على نواجزها وهى تقول لمكسيم :
ــ انتظر •• ان هؤلاء المجانين لن يكفوا أبدا عن الرقص ••
ثم أمسكت بيده حتى لا ينتهز أية فرصة وينفلت منها •• !
وكان دى سافريه ، المنظم لرقصة « السيتلون » يشرف على تكوين صفين من الراقصين ، بينهما صف من الراقصات •• ثم صفق بيديه • فراح صفا الرجال يطبقان على صف النساء ، واذا بكل امرأة تجد نفسها مضغوطة من الامام ومن الخلف برجلين •• واذا الضحكات تدوى فى جوانب القاعة ، كلما ارتفعت أذيال الفساتين الى ما فوق الركب !

وفيما كانت النغمات الموسيقية المصاحبة للرقصة تعلو رويدا رويدا حتى تغدو ضجيجا ، قالت رينيه لمكسيم وهى تنحرف به نحو غرفة الانتظار القريبة من السلم :

ــ تعال معى ••
ثم دفعت به الى مدخل جناحها الخاص ، وقالت بلهجة آمرة :
ــ امض أمامى الى مخدعى ••
ثم تبعته بخطوات حازمة ••

وكانت مدام سيدونيه التى لاحظت حيرة رينيه ، وانتقالها السريع من غرفة الى أخرى كأنما تبحث عن شيء ، قد وقفت فى تلك اللحظة بالقرب من باب الحديقة الشتوية ــ فى الظلام ــ ومن ثم فوجئت برؤية رينيه وهى تدفع أمامها ، فى مدخل جناحها الخاص ، رجلا لم تستطع مدام سيدونيه أن تتبين شخصيته • ومن ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة ، ثم لملمت أطراف ثوبها الطويل ، وانطلقت للبحث عن أخيها .. وبعد أن أمضت فترة غير وجيزة فى هذا البحث ، عثرت على أخيها جالسا فى ركن منعزل مع السيد دى موريل • وكان الوالدان يتبادلان الحديث عن الزواج و « الدوطه » وبعض التفاصيل الدقيقة ••
وأسرعت مدام سيدونيه الى جانب اخيها ، وهمست فى اذنه

ببضع كلمات .. فنهض ساكارد مسرعا ، واستأذن صديقه للانحراف برهة ثم العودة اليه أن أمكن

***

وهناك فى جناح رينيه الذى تركت بابه مفتوحا لفرط انفعالها وثورتها ، كان المخدع فى حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب .. ذلك ان السيدات اللاتى اشتركن فى التمثيل كن قد اتخذنه مكانا لتغيير الملابس وتجميل الوجوه ..

وتعثرت قدم مكسيم فى حزام بطن « كورسيه » ، وكاد يسقط لولا تشبثه بمقعد عاجى كانت عليه قطع كثيرة من الملابس النسائية الداخلية . وحاول أن يضحك ، ولكن الضحكة ماتت على شفتيه .. وحلت محلها رعدة سرت فى كيانه ، وهو يجد وجه رينيه الجامد الصارم ..

وتقدمت نحوه ، ودفعت به الى الوراء .. الى السرير الكبير ، وقالت له بصوتها الاجوف :

ــ اذن ستتزوج بتلك الحدباء .. !

وتمتم مكسيم قائلا :

ــ لا .. لا .. مطلقا .. من قال لك هذا ؟

فضغطت رينيه على اسنانها برهة ، ثم قالت :

ــ لا تسمعنى أكاذيبك ، لاننى لن أصدق حرفا منها ..

وتملكه الفزع .. ورأى أن يقاومها بقدر الامكان حتى يتمكن من الخلاص منها نهائيا ، ومن ثم قال فى لهجة كلها التحدى :

ــ حسنا .. نعم .. اننى سأتزوجها فعلا ، فماذا فى وسعى أن أفعل ؟ ألست حرا فى تقرير أمر كهذا ؟

فتقدمت نحوه برأس منخفضة قليلا كأنها ثور فى حلبة المصارعة ، ثم أمسكت بمعصميه فى عنف ، وقالت وهى تضحك بعصبية :

ــ هل أنت حر فى تقرير أمر كهذا ؟ .. أحقا هذا ؟ .. ألا تعرف ان هذه الحرية هى من حقى انا .. ألا تعرف أننى السيدة المسيطرة عليك ؟ اننى استطيع الان ان اكسر معصميك اذا شئت .. فأنت لست أقوى من فتاة !

ولما حاول ان يقاومها ويخلص معصميه من قبضتيها ، لوتهما بكل ما يثور فى نفسها من عنف وغضب •• واضطر مكسيم الى اطلاق صيحة ألم خافتة ، فأطلقت يديه وقالت :

ـ أترى ؟ •• لا داعى للخصام ، ويكفى أن أضربك كما تضرب الام ابنها العاق •• اذا قاومت مرة أخرى •• !

وتسمر فى مكانه ،وقد شعر بالخجل من انه أطلق تلك الصيحة الخافتة •• وشرع يرقبها فى خوف متزايد ، وهى تروح وتجىء فى الغرفة ، مزيحة كل ما يعترض طريقها بقدميها ، مطرقة الرأس تفكر فى الخطة التى رسمتها فى ذهنها منذ سمعت زوجها يتحدث عن زواج ابنه مكسيم بلويز ••

وقالت اخيرا بعد أن عقدت العزم على امر ما :

ـ لسوف اسجنك هنا •• وعندما يسفر الفجر ، سوف أرحل معك الى ميناء الهافر ••

فازداد وجهه امتقاعا ، وانعقد لسانه لحظة من فرط الانفعال ، ثم قال وهو يتلعثم :

ـ اننا .. اننا لا .. لا نستطيع أن .. أن نهرب معا .. لا شك انك •• أنك يارينيه قد فقدت •• عقلك .. !

فاطلقت ضحكة قصيرة رهيبة وقالت :

ـ من المحتمل جدا أن اكون قد جننت •• واذا صح هذا ، فمن يكون السبب ؟ انه أنت •• وأبوك •• أنا الفريسة التى وقعت بينكما •• بين محتال كل همه الحصول على المال ، وبين شاب مدلل كل همة الحصول على النساء •• وأنا الآن لا استطيع الاستغناء عنك !

ثم توقفت برهة لتلتقط أنفاسها قبل ان تستطرد قائلة :

ـ اننى أريدك ، وسوف أظفر بك . لقد استأسدت الفريسة أخيرا لتنال حقها فى الحياة • ومهما يحدث فلن اتخلى عنك لاحد غيرى ••

وخيل الى مكسيم أن أشعة حمراء تنبثق من عينيها ، وهى تقترب منه وتكاد تلهب وجهه بأنفاسها قائلة :

ـ أى مصـــير ينتظـــرنى اذا أنت هجرتنى وتــزوجت تلك الحدباء ؟ ! •• هل تظن اننى سأعود الى أبيك المحتال لاسلمه نفسى مرة أخرى ؟ أم ترى أنه لن يهمك فى كثير أو قليل أن إعيش مثل لورا دورينى •• كل ليلة مع عشيق جديد ؟

وتوقفت مرة اخرى عن الحديث لتلتقط انفاسها ، ثم ازدادت اقترابا منه حتى كاد وجهاهما أن يتلامسا ، ثم استطردت قائلة :

ـ أم لعلك تعتقد أنى سأبيع نفسى لذلك الاحمق دى ماسيه ، أو ذلك المأفون دى سافريه ؟ .. عندما يحدث بين رجل وامرأة ما حدث بيننا ، فلابد لهما أن يبقيا معا •• وعدا هذا فان الامر سهل واضح !

ولما نظر مكسيم اليها متسائلا ، أردفت قائلة :

ـ أعنى اننى أشعر بالملل القاتل عندما تغيب عنى •• وهــذا بدوره معناه أن الحياة بدونك جوفاء تافهة غير جديرة بأن أحياها •• ومادمت قد قررت أن أرحل عن هذه العاصمة المجنونة ، فلا مندوحة لك من الرحيل معى • ويمكنك أن تخبر سيلست بكل ما تريده عند الرحيل •• !

وهنا بسط الشاب المسكين ذراعيه اليها فى ابتهال وتوسل ، وقال لها :

ـ مهلا يا حبيبتى •• مهلا يارينيه •• تمالكى نفســـك .. فكرى فقط فى الفضيحة التى سنتركها وراءنا ••

ومرة أخرى ارسلت تلك الضحكة القصيرة العصبية وقالت :

ـ وماذا يهمنى من امر هذه الفضيحة ! اننى على آستعداد لان أثيرها هنا •• يمكننى أن امضى الان الى المدعوين جميعا وأعلن لهم عن علاقتنا ! •• أقول لهم انك بعد أن عاشرتنى كزوج ، تريد الان أن تنبذنى لتتزوج من تلك الحدباء •• ما رأيك ؟

وأحنى مكسيم رأسه ، وقد بدأ يضعف ويستسلم لهذه الارادة العنيفـــة التى فرضت نفسها عليه • واســـتطردت رينيه تقول بصوت خافت ، وكأنها تعبر عن أحلامها :

ـ لسوف نذهب الى الهافر ، ومنها الى انجلترا ..وهناك لن يحشر أحد انفه فى شئوننا • واذا حدث شىء من هذا ، فسوف

يرحل الى بلد بعيد .. الى أمريكا .. اننى أشعر أنى سـأكون سعيدة هناك ..

ولكن مكسيم لم يلبث أن ارتعد مرة أخرى فزعا ،حين سمع هذا الاقتراح الاخير .. اذ كيف يترك باريس ويرحل بعيدا بعيدا مسلما زمام أمره لامرأة لاشك فى جنونها ، تاركا وراءه فضيحة تمنعه من العودة الى فرنسا مرة أخرى . وأحس فى تلك اللحظة انه يختنق تحت وطأة كابوس رهيب .. ودفعه اليأس الى التفكير فى وسيلة للنجاة من هذا المخدع الوردى .. المخدع الفاخر الذى ليس له مثيل فى قصر الامبراطور . وفجأة خطر له أنه عرف الوسيلة ، فقال بصوت رقيق حتى يأمن اثارتها :

– اترين ؟ .. اننى لا أملك شيئا من المال .. واذا سجنتنى هنا ، فلن استطيع الحصول على شيء ..

فهتفت قائلة بصوت يرن بالانتصار :

– ان المال موجود .. ان تحت ايدى مائة الف فرنك .. آه .. ان الاقدار تساعدنا ببراعة .. !

ثم مضت الى خزانة ملابسها ، وأخرجت عقد بيع أراضيها فى شاردن .. وهو نفس العقد الذى تركه زوجها معها آملا أن تعيد النظر فى موقفها ، ثم توقعه من تلقاء نفسها ..

ووضعت العقد على منضدة الزينة ، وأمرت مكسيم أن يدنى منها المحبرة الذهبية المرصعة ، والقلم الفاخر .. ثم ما لبثت أن وقعت العقد وهى تقول :

– ها انا قد ارتكبت آخر حماقة مالية .. واذا كنت قد خدعت، فقد تمت الخديعة بارادتى . ولسوف نمر على لارسونيه ونحن فى طريقنا لمغادرة باريس .. ولا شك انه سيبتهج حين يأخذ العقد ويعطينى المائة ألف فرنك .. !

وأرسلت ضحكة قصيرة عصبية قبل أن تردف قائلة :

– والان سوف أسجنك هنا ياصغيرى الحبيب وبعد أن ينصرف هؤلاء المجانين من القصر ، سوف نهرب عن طريق الحديقة الخلفية .. ولن نكون فى حاجة الى حقائب سفر كبيرة !

واستبدت بها البهجة والنشوة ، فراحت تتراقص فى الغرفة

وقد رأت أن هذا الهرب سوف يثير فى باريس ـ بل فى فرنسا كلها ـ ضجة اشد دويا من ضجة الرحلة الجوية التى كانت تنوى القيام بها بالبالون .. !

واندفعت أخيرا الى مكسيم ، وأخذته بين ذراعيهـــا ، وراحت تضمه بقوة وعنف وهى تقول :

ـ ياحبيبى المسكين ، هل آلمتك كثيرا .. لقد أرغمتنى على هذا باحبيبى عندما تحديتنى بالرفض . ولكنك سوف ترى الى أى حد سأكون لطيفة معك .. هل يمكن أن تحبك تلك الحدباء نصف حبى لك ؟ هل يمكن لها أن تمتعك نصف امتاعى لك ! .. هل لديها من حرارة العاطفة نصف ما لدى أنا ؟ !

وعادت تضحك .. ثم اطبقت على شفتيه بقبلة نارية .. وفجأة سمع الاثنان وراءهما صوتا جعلهما يســـتديران فى فزع ليريا ساكارد واقفا كالتمثال فى المدخل .. !

وخيم الصمت الرهيب على المخدع ، وفى بطء شديد ، أخذت رينيه تبعد ذراعيها عن عنق مكسيم دون أن تحنى رأسها ، وانما ظلت محملقة فى وجه زوجها بعينين ثابتتين كعيون الموتى . أما مكسيم ، فقد ترنح قليلا كمن أصابته ضربة عنيفة على رأسه . وكان فى أعماق نفسه يحس كأن ثمة وحوشا ضارية تتصارع ، وتريد أن تلتهمه من الداخل ..

أما ساكارد فقد ظل متسمرا فى مكانه ، يكاد يحرق الاثنين بنظراته الملتهبة المنبثقة من عينين حمراوين مصبوغتين من الداخل بالدم .. !

وظلت الشموع الثلاث فى الشمعدان الفضى ترســـل ضوءها فى جوانب الغرفة ، وكأنما شعلاتها الثلاث المتصاعدة رأسيا فى الجو الساكن ، دموع من نار .. !

وفى هذا السكون الرهيب المخيم عـلى المخـدع ، كانت نغمات الموسيقى الراقصة تنساب من بعيد كأنها ضحكات ساخرة لأشباح خفية ، أو همسات خبيثة تتلوى وتتســـلل لكى تموت فى ســـكون المخـــدع . . .

وأخيرا تقدم الزوج خطوات الى الامام .. وكان وجهه ينم عن

رغبة عارمة فى ارتكاب جريمة قتل .. قتلَ أى انسان .. وجمع قبضتى يديه ليضرب بهما الخاطئين ضربات تقضى عليهما . وكان ساكارد رغم قصر قامته ، وبلوغه الخمسين من عمره ، لا يزال يحتفظ بقوة عارمة

وفجأة تمالك زمام نفسه ، وقال لمكسيم وهو يرسل ضحكة قصيرة ساخرة :

ــ أعتقد انك كنت تخبرها بموضوع زواجك من لويز ! ..

فتلجلج مكسيم ، وقال وهو يتراجع الى الوراء :

ــ ارجوك أن تسمعنى .. انها هى التى ..

وكان على وشك أن يلقى عليها التبعة كلها كأى جبان ، وأن يكشف الحقيقة كلها قائلا أنها هى التى أرادت أن تغريه ، أوتفرض عليه الهرب معها .. وكأنما هو طفلٌ يحاول أن يدافع عن خطأه بالقاء تبعة هذا الخطأ على غيره ، غير أنه لم يستطع .. فقدخذلته قواه ، وماتت الكلمات فى حلقه . أما رينيه ، فقد ظلت محتفظة بموقفها الجامد المتسم بالتحدى . وتلفت ساكارد حوله ، ربما للبحث عن سلاح يقتل به الاثنين .. وعندئذ وقع نظره على منضدة الزينة فى ركن الغرفة . وعلى المنضدة ، وبين الامشاط والادوات المختلفة ، رأى عقد بيع أراضى شاردن . ونظر اليه بامعان ، ثم نظر الى الاثمين .. وعاد يحملق فى عقد البيع ، وأخيرا شاهد التوقيع عليه ، كما رأى المحبرة والقلم الذى كان سنه لا يزال يحمل اثار المداد ..

وظل واقفا برهة امام العقد الممهور بالتوقيع ، وكأنما قد استغرق فى تفكير عميق مفاجىء !

وبدا كأنما السكون يزداد عمقا فى جو المخدع الكبير .. وازدادت شعلات الشموع استطالة ، وبدأت نغمات موسيقى الفالس تخفت تدريجيا كأنها أنفاس رجل يحتضر . وعاد ساكارد ينظر الى زوجته وأبنه فى تركيز شديد كأنما يحاول أن ينتزع من ملامحهما تفسيرا لما يرى .. !

وأخيرا .. أخيرا جدا ، مد يده ، وتناول عقد البيع ، ووضعه فى جيب سترته الداخلى بعد أن طواه ، ثم قال لرينيه بصوت

شــاحب كوجهــه :

– لقد أحسنت بتوقيع هذا العقد يا عزيزتى .. ويمكنك أن تعتبرى المائة الف فرنك فى جيبك الآن .. لسوف آتى بالمبلغ اليك الليلة . . . !

فوجئت رينيه بهذا التغيير الطارىء الذى ران على زوجها ، بعد أن وقعت عيناه على عقد البيع .. وحاولت أن تقول شيئا ، ولكنها أحست بجفاف حلقها ، فلم تستطع أن تخرج كلمات واضحة وكان زوجها قد استأنف حديثه وهو يحاول الابتسام ، فقال متقدما خطوة أخرى :

– ان الجو هنا خانق ، وكأننا فى حمام تركى .. !

ثم التفت الى مكسيم الذى أدهشه ايضا هذا التغيير الطارىء على موقف أبيه ، ثم اردف قائلا :

– فلماذا نبقى هنا .. لقد رايتك وأنت تدخل ، فتبعتك لأطلب منك أن تأتى لكى تصافح السيد دى موريل مودعا قبل أن ينصرف .. هلــم نمضى !

وغادر الاثنان المخدع معا وهما يتبادلان الحديث كأى صديقين حميمين .. وبقيت رينيه بمفردها ، واقفة فى وسط الغرفة .. تحملق فى الممر الممتد أمام الباب ، وتشيع بنظراتها الاب والابن وهما يسيران جنبا الى جنب فى الطريق الى طابق الاحتفالات امامها بعد اختفائهما ، وكأنما تأبى أن تصدق ماحدث .. انها فى أعماق نفسها تعجب كيف لم يحطم احدهما الآخر ؟ كيف لم يحاول أحدهما ، مجرد محاولة ، أن يقتل غريمه . لعلهما يفعلان هذا الآن .. انها تتقدم بقدميها الحافيتين نحو غرفة الجلوس عند مدخل الجناح ، وترهف السمع عسى أن تسمع أصوات المعركة الدائرة بينهما فى مكان ما .. ولكن لا ، انها لاتسمع شيئا الا نغمات الموسيقى التى بدات تنساب للرقصة التالية .. انها لا تسمع شيئا الا ضحكات الراقصين ، نساء ورجالا .. وانها – كما خيل اليها – لتسمع من بعيد رنين ضحكات ممتزجا بصوت دى سافريه المرتفع ..

اذن لقد انتهت المسرحية .. انتهت خطيئتها .. ذهبت أدراج

الرياح تلك القبلات النــــارية على السرير الكبير .. تلك الليـــالى الوحشـية المسعورة فى الحديقة الشتوية !

انتهى كلّ هـــذا . . .

وانتهى معه ذلك الحب الذى امتص الملل من حيـــاتها ، وألهب عواطفها ، وأشـــــعل النار فى دمـــائها .. انتهى ذلك كله بهـــذه الطريقة الخســــــيسة السوقية .. انتهى بأن عرف زوجهـــا كل شيء ، ومع ذلك لم يحاول أن يرفع يده عليها .. لقد أعماه عقــد البيع حتى عن مجرد الدفاع عن شرفه !

وفى جوف هـــذا الظـــلام المحيط بهـــا .. فى غلالات هـــذا السكون المرصعة فقط بنغمات موسيقى الفالس ، شـــعرت رينيه بخوف مفاجىء ، كأنما هذه النغمات حفيف أقـــــدام جماعة من السفاحين يزحفون نحوها . .!

لقد أحست بالخوف من هذا السكون .. من هذه الغرفة الانيقة الفاخرة التى طالما شهدت أركانها فنونا من الحب الملتهب ، والقبلات النارية ، والعناق المستعر . . .

وعادت الى مخدعها كأنما تحتمى فيه من شىء مجهول ٠٠ وحانت منها نظرة الى المرآة الكبيرة الطويلة التى تزين خزانة ملابسها . وشرعت تقترب من المرآة وقد ادهشها وافزعها منظرها ٠٠ لقد نسيت زوجها ، ونسيت مكسيم وهى تنظر فى فـــزع وعجب الى هذه المرأة الغريبة التى يعكس صورتها أديم المرآة ٠ وأحســـت بفوزة من الجنون ترتفع الى عقلها ، وخيـــل اليها ان خصــــلات شعرها الاصفر الملتصقة بجانبى وجهها أقـــــدام رقيقة لحشرة سامة ٠ وهذه التجاعيد التى ترتسم على جبينها غائرة عميقة ، وكأنها خطوط سوداء مرسومة فوق عينيها ، أو علامات زرقـــاء ناشئة من ضربات سوط لاذع .. فمن ذا الذى وسمها على هذا النحو ؟ ان زوجها لم يرفع يده عليها . لا .. ولا أحد غيره ! أن شحوب شفتيها ليدهشها ، وان عينيها القصيرتى النظر لتبدوان كأنما اختفتا تماما . ترى كم بلغت من العمر وهى تلوح على هـــذه الحال ؟ ومالت برأسها قليلا .. ثم وقعت نظراتها على جسمهـــا الشـــــبه عار تحت ثوبها الفاضح ، وأغمضت عينيهـــا فى خجل

وارتباك .. ترى من الذى جعلها تبدو هكذا عارية ؟ وماذا تفعل هى فى هذا المكان وقد كشفت عن ثدييها كأية بغى تكشف عن الجزء الأعلى من جسمها حتى البطن ؟ انها لم تعد تعرف : انما هى ترنو الى فخذيها المرسومين تحت ثوبها الضيق ؟ والى اعلا الفخذين حيث كانت خطوطهما تبدو بوضوح تحت الثوب الشفاف ..

انها لتخجل من نفسها ٠٠ وأن احتقارها لهذا الجسد ليملأ نفسها بغضب مكبوت على الذين تركوها هكذا .. جسدا عاريا لا تكاد تكسوه الا غلالة من حرير ، وحلى من ذهب وماس .. !

وحاولت بعد ذلك ان تتذكر السبب الذى جعلها تقف هكذا ، وتبدو على هذا النحو الفاضح ، عارية أمام المرآة ٠٠ وفجأة ارتدت بها الذكريات الى ايام طفولتها . ومرة أخرى رأت نفسها طفلة فى السابعة من عمرها تعيش فى ذلك البيت الكبير الكئيب .. بين الاسرة . وتذكرت اليوم الذى ألبستها فيه عمتها ، هى وأختها الصغرى كريستين ، ثوبين رماديين منقوشين بالزهور الحمراء . لشد ماسعدتا يومذاك بهذين الفستانين المتماثلين ! ٠٠ ولشد ما كانتا سعيدتين بتلك المناسبة ٠ مناسبة عيد رأس السنة ؟ آه .. لقد كانت عمتهما تدللهما ، وبلغ من أسرافها فى هذا التدليل انها أعطت كلا منهما عقدا وسوارا من المرجان . وكانت الاكمام طويلة ، وياقة الثوب تصل الى الذقن ، ومن ثم كانت الحلى تبدو جميلة من فوق الملابس .. وتذكرت رينيه أن أباها كان يبتسم وهو يراهما على هذا النحو . وكانت ابتسامته كالمعتاد تتسم بذلك الطابع الحزين . وفى ذلك اليوم ، أخذت هى وأختها تسيران جيئة وذهابا فى غرفتهما الكبرى ، كأية فتاتين بالغتين .. دون أن تفكرا فى اللعب بالدمى حتى لايتسخ الثوبان . ولما ذهبتا الى المدرسة بهذين الثوبين ، أخذت التلميذات يسخرن منها بسبب طول الثوب ووصول ياقته الى الذقن وأكمامه الى اليدين . وحتى تنجو رينيه من هذه السخرية ، حرصت على أن تشمر أكمامها ، وتقصر ثوبها ، وتطوى ياقته لتكشف عن نحرها ..

ترى .. هل بدأت تتعلم كيف تبدو عارية منذ ذلك الحين ؟

واخذت صفحات حياتها تتوالى أمام بصيرتها .. فتــذكرت تلك الاحساسات النارية التى كانت تثور فى جسمها ، وتصعد الى رأسها ، وتدق بعنف جوانب عقلها . كانت هــذه العواطف المشبوبة كأنها عصير مسموم يخدر أعضاءها ، ويملأ قلبها بالعار ، ويفعمنفسها بمشاعر حيوانية مخجلة .. وانهذا العصير المسموم ليفيض وينثال عند قدميهــا ، وعلى كل مكان تخطو فيه منــذ زواجها .. ولاشك أن هناك أشخاصا آخرين هم الذين زرعوا حبوب هذا العصير الذى تسلل الى دمائها ، وملأ قلبهــا بذلك الشعور القوى من الخوف والعار ..

انها تتذكر طفولتها بوضوح .. فعندما كانت طفلة صغيرة ، لم تكن تكف عن السؤال عن كل شىء بدافع الفضول . وحتى بعد ذلك ، عندما ارتكبت خطيئتها الاولى وسلمت نفسها لاول رجل ، شعرت بأنها أخطأت ، وانها لم تكن راضية عن كل هذا العار . ولو ان اباها غفر لها ، لآثرت أن تبقى طيلة حياتها بجانب عمتها ، تشتغل بالتطريز ، وتتسلى بأعمال البيت . ولكن هذا الامل لم يتحقق . وانما الذى تحقق هو وقوفها الآن أمام المرآة ، تنظر الى صدرها العارى ، الىفخذيها ، والى ساقيها ، الىهذا الجسد الذى لونه الاشتهاء بلون الدماء .. وانها لتشعر فى أعماق نفسها بوخز المبادىء والتقاليد التى توارثتها عن أسرتها العــريقة .. مبادىء وتقاليد الشرف ونبذ الخطيئة والخوف من العقــاب فى الآخرة .. مبادىء وتقاليد الطبقة المتوسطة فى كل مجتمع ، فى كل زمان ومكان .. وانها لتثور على خطيئتها ، وانها لترتعد وهى تفكر فى جحيم الآخرة الذى ينتظرها .. وانها لترى أنه كان من الواجب أن تكفر عن خطيئتها الاولى بدفن نفسها فى ذلك البيت الكبير .. بجوار عمتها ..!

اذن من الذى جعلها تقف هكذا عارية ؟ ..

انها ترى ـ كما لاح فى مخيلتها ـ شخصين يرتفعان من أديم المرآة .. انهما ساكارد ومكسيم .. ساكارد بضحكته القصيرة القاسية ، وساقيه النحيلتين ، وارادته الحــديدية ! .. عشر سنوات وهى تراه يعمل بلا انقطاع كالحداد ، يرفع مطرقة ضخمة

ويضرب بها الحديد الساخن ، ويرسل الشرر فى كل مكان .. لايهدأ ولا يكل ، ولايخشى أن تقع المطرقة الضخمة من يديه ذات يوم لتقتله !

انها تفهمه الآن لاول مرة .. لقد عرفت أنه رجل عاش وليس فى ذهنه غير فكرة واحدة ، وهى جمع المال بأية وسيلة ! .. أو على الاصح ، فكرة الثراء الفاحش الذى يذهل الناس .. وانها لتذكر الآن كيف كان يقفز فوق العقبات ، ويتمرغ فى الاوحال دون أن يفكر فى التخلص منها خشية أن يضيع الوقت اللازم لتحقيق الهدف ، بل دون أن يتوقف ليستريح .. وانما كان « يمضغ » قطعه الذهبية وهو يجرى فى طريقه نحو الثراء ..

ثم مكسيم .. انه يظهر بشعره الناعم وشبابه الغض وراء جسم أبيه الخشن القصير .. انه يظهر بكل تفاهات الشباب « العاطل بالوراثة » .. بشعره المفروق من الوسط ، بخطواته المختالة ، بضحكاته العالية ، باحتقاره الشديد لأبيه المنهمك فى جمع المال لكى يبعثره هو .. ورينيه ، بغير حساب .. !

ان مكسيم ليرمز للشاب المرفه الناعم بأصابعه اللينة ، وصونه الرقيق ، وجسمه المائع اللين الشبيه بجسم المرأة . ان فى هذا الجسم اللين الناعم كانت تنثال الرذيلة بسهولة وبساطة .. وكأنما وجدت فيه المرتع الخصيب . وان رينيه لتتراجع قليلا ، وهى ترى هذه الصورة التى رسمتها بخيالها عن مكسيم تتجسم على أديم المرآة . وفيما هى تتراجع ، لمحت ساكارد ــ بخيالها الثائر ــ وهو يتخذ منها فخا أو أداة لانجاح مشروعاته ، وأن مكسيم قد ظهر ــ بمحض المصادفة ــ ليلتقط الجنيهات الذهبية التى كانت تتساقط من هذا الأب المغامر .. المقامر !

وتذكرت أن زوجها كان يشجعها على الانفاق .. على البذخ وبعثرة المال بغير حساب .. كل هذا ليبدو أمام الناس فى مظهر الثرى الكبير .. وليقتنص فى النهاية كل ممتلكاتها . ولم يكن يهمه فى هذا السبيل أن تخونه أو تعرض شرفه ليكون مضغة فى الافواه .. وماذا يهمه فى هذا مادام يبدو ثريا دائما ، وموضع حسد الجميع ؟!

وفى هذا السبيل ، راح يدفعها رويدا رويدا ، الى الهاوية المظلمة من جنون الحب ، من جنون القبل والعناق ، من الاستسلام المطلق لابنه مكسيم .. واذا كان مكسيم هو النوع الجديد من دماء أبيه ، فانها هى تعتبر الثمرة المرة الناتجة من اختلاط دماء الاب والابن .. الحفرة القذرة التى حفراها معا وراحا يتدحرجان فيها الآن .. !

لقد عرفت الآن من الذى جعلها تقف هكذا عارية ؟! ..
انهما هذان الرجلان .. الاب والابن ، لقد نزع ساكارد الجزء الاعلى من ثوبها .. ونزع مكسيم الجزء الاسفل . وتعاون الاثنان على نزع كل ماتبقى من ملابسها الداخلية . وهاهى الآن تقف عارية تماما الا من الاساور والحلى الذهبية والماسية .. كأنها جارية من جوارى هارون الرشيد !

لقد نظر الاثنان اليها منذ لحظة دون أن ينبهها أحدهما الى أنها عارية .. وكل مافعله مكسيم أن راح يرتعد كالجبان ، ويخشى أن يستمر معها ، فى هذا الحب ، الى النهاية . وكل مافعله الاب أنه سرقها بدلا من أن يقتلها دفاعا عن الشرف .. ان هذا الرجل لايقبل على الناس الا لكى يختلس مافى جيوبهم . وكان يكفى أن يرى توقيعها على عقد البيع حتى تهدأ ثورته ، وحتى يحس كأن هذا التوقيع بمثابة ضوء الشمس الذى بدد ظلام نفسه الثائرة .. وهكذا رأى أن خير انتقام منها هو أن يسرقها ويضع ذراعه فى ذراع ابنه ... وينصرف بكل هدوء !

انصرف الزوج المطعون فى شرفه هادئا باسما .. !
اثنان من الجبناء .. لقد تركاها عارية .. !

وشعرت بالضيق من عريها .. فأشاحت بوجهها وتلفتت حولها ، واستنشقت مرة أخرى ذلك العبير .. عبير المسك ، الذى لاتخلو منه غرفات جناحها ليلا أو نهارا . وانصتت مرة أخرى الى نغمات الفالس وهى تنساب كالاطياف الى سكون الغرفة فتدغدغه قبل أن تتلاشى كأنفاس محتضر . ووضعت يديها على أذنيها حتى لاتسمع ، ولكنها لم تستطع .. وتبدت لها فخامة الغرفة ورواءها وألوان البذخ التى تبدو فى كل شىء بها . وأخذت

ترسل نظراتها الى الحمام الصغير المصنوع كله من المرمر على هيئة قوقعة كبيرة ، تفتح صدفتيها عندما تقترب منها ، وتغلقهما بعد أن تدخل .. وهذان المصراعان مصنوعان من الصدف الوردى المموه بأسلاك الذهب.. وجدران الحمام كلها من الداخل مصنوعة من المرمر المذهب ، وكذلك حوض الاستحمام الفاخر ذو الثقوب الخفية المليئة بالمسك . وانتقلت بنظراتها الى كل قطعة فى المخدع مصنوعة من الذهب ، والخشب الاغلى من الذهب .. والحرير الاغلى من الاثنين !

ومن هذا كله سمعت صدى خطيئتها .. سمعت نداءات الجسد الذى طالما تمرغ فى هذا الترف كله بين ذراعى مكسيم .. وان كل قطعة فى هذا المخدع لتذكرها بمكسيم .. بكل هذه الاقذار الجسدية التى تتمنى من صميم قلبها فى تلك اللحظة أن تنساها .. !

واستدارت الى السرير الكبير .. ولكنها أخفت وجهها بيديها حتى لايذكرها هذا السرير بالليالى المسعورة التى قضتها بين ذراعى مكسيم .. وتلفتت حولها كأنما تبحث عن مهرب لايذكرها بشيء .. ولكن الغرفة بدت عندئذ عارية مثلها ، مختنقة الجو برائحة الجسد الملتهب بالاشتهاء والرغبة .. وفجأة شعرت بميل رهيب الى تحطيم كل شيء .. الى تمزيق الستائر وأغطية السرير .. الى تدمير الحمام المرمرى ، وتكسير القنينات العطرية وأدوات الزينة .. الى القاء هذا كله فى بالوعة قذرة لكى يشقى مثلها بالدنس والخبث !

ولما فتحت عينيها مرة أخرى ، عادت تنظر الى نفسها فى المرآة .. وهنا رات نفسها ميتة ، كل خلجة فى ملامح وجهها تنم على أن الجنون قد زحف أخيرا الى رأسها ، وأن مكسيم — هذه القشة الاخيرة التى جعلتها تتعلق بالحياة — كان الاداة التى قضت عليها .. الاداة التى أرهقت جسدها ، وبلدت حواسها ، ودمرت عقلها . ومن ثم فقد ضاع كل أمل لها فى العودة مرة أخرى الى الحياة !

وامتزج هذا الميل الجارف الى التحطيم ، بميل آخر الى

الانتقام .. الى الانتقام الذى يشبع للمرة الاخيرة رغبات جسدها الظامىء الملتهب المرهق ، لسوف تقوم بعمل طائش تظفر عن طريقه بمكسيم ، ثم تحمله معها الى بلاد أخرى حيث يستأنفان ذلك السعير من الحب . ان لويز لاتستطيع أن تتزوجه وهى تعرف تماما أنه ليس رجلها .. وانما هو رجل رينيه ، عشيقها الوحيد .. !

ولما استقر عزمها على هذه الفكرة ، القت على كتفيها بفراء كبير ، وضمت طرفيه على جسدها ، واندفعت خارجة من باب جناحها الخاص ، وقد كادت عندئذ أن تصطدم بامرأة كانت واقفة فى هيئة المتلصص على شىء ما ..

وكانت تلك المرأة هى مدام سيدونيه ، أخت زوجها . ومن ثم لم تستطع رينيه أن تكبت غضبها ، فهتفت بها قائلة :

ـ هل كنت تتجسسين على ؟!

فقالت مدام سيدونيه بازدراء شديد :

ـ وهل تعتقدين أننى أهتم بقذارتك ؟

ثم جمعت أطراف ثوبها ، وقالت وهى تهم بالانصراف :

ـ ليس ذنبى أن تجدى نفسك فى مشكلات لانهاية لها .. وأنا لا أكن لك عداوة أو حقدا .. أتسمعين ؟ ومع ذلك يمكنك أن تطمئنى الى أنك ستجدين فى شخصى أما حانية تفتح ذراعيها لك فى كل وقت ..

ثم أرسلت المرأة ضحكة قصيرة شبيهة بالضحكة الخشنة التى اعتاد أخوها أن يطلقها ، وقالت :

ـ ولشد مايسعدنى أن أراك فى مسكنى .. فى أى وقت !

ولم تنصت رينيه اليها ، وانما اقتحمت قاعة الرقص ، ومرت بلا وعى بين صفوف الراقصين والراقصات دون أن تعنى بنظرات الدهشة التى صوبت اليها من كل جانب بسبب هذا الفراء الذى وضعته على كتفيها .. وبعد أن وصلت الى الردهة الخارجية المؤدية الى باب القصر ، رأت لويز وأباها دى موريل يصافحان مكسيم وأباه قبل انصرافهما . وكان البارون دى جورود قد انصرف ، وغادرت مدام سيدونيه القصر مع المقاولين الكبيرين

مينون وشارير .. بينما راح الشاعر دى نوى يسير بجوار مدام ميشلين ويهمس لها بأشعار الغزل ، وزوجها يتبعهما من بعيد . وكان الشاعر قد أمضى الجزء الاخير من الحفلة فى سكب أشعار الغزل والنجوى بين يدى ميشلين الخمرية الحسناء . وكان عندئذ قد استطاع أن يغريها بقضاء شهر معه فى كوخه الريفى « بعيدا عن الدنيا .. » !

وفى تلك اللحظة ، كانت لويز قد أخذتها نوبة حادة من السعال ، مما جعل أباها يقول لها فى عطف :

ــ ضمى المطرف جيدا على صدرك ..

وأسرع مكسيم ليساعدهما على احكام أطراف المطرف حول كتفيها وصدرها ، وكانت رينيه عندئذ قد ظهرت ، فأسرع دى موريل يحييها قائلا :

ــ شكرا ياسيدتى على هذه الحفلة الرائعة .. وأرجو أن نراك بخير غدا ..

ووقف الجميع يتبادلون الحديث برهة .. وحاولت رينيه أن تبرر شحوب وجهها وارتعاد أطرافها ، فقالت انها تشعر بالبرد الشديد ، وأنها من ثم صعدت الى جناحها والقت على كتفيها هذا الفراء الثقيل ..

وانتظرت اللحظة المناسبة التى تخبر فيها لويز بما تريد همسا .. وكانت لويز تنظر اليها بهدوء لايخلو من الفضول . ولما اخذ الرجال يتبادلون المصافحة مرة أخرى ، مالت رينيه على لويز وهمست لها قائلة :

ــ قولى لى انك لن تتزوجى مكسيم .. ان هذا مستحيل

ــ كما تعلمين ــ لاننى ..

ولكن الفتاة قاطعتها قائلة ، وهى تقف على أطراف أصابعها حتى تهمس فى أذنها :

ــ أوه ! لاتنزعجى .. فسوف أمضى به بعيدا عنك . ولن يهمنى الامر بعد أن أصبح زوجته .. !

ثم رسمت على شفتيها تلك الابتسامة الغامضة ، تاركة رينيه

واقفة فى مكانها ، تحاول أن تقول شيئا ، ولكنها لاتستطيع .. !

ان رينيه لم تفهم أولا ماذا كانت تعنى لويز بما قالت .. لقد ظنت أنها تسخر منها . ولكن عندما سمعتها تقول وهى تنصرف مع أبيها « الى اللقاء يامكسيم فى يوم الاحد » ، استبد بها الفزع ، وهى تنظر الى الاب وابنه .. ثم أخفت وجهها بين يديها حتى لاتراهما وهما واقفين هكذا بكل هدوء ، ثم استدارت وانطلقت صاعدة الى جناحها الخاص !

وهناك ، على الفراش الحريرى الذى شهد أعذب ليالى الحب وأقسى أيام الحرمان ، ألقت رينيه بنفسها ، وأطلقت لدموعها العنان !



الفصل الرابع عشر

ضربة لارسونيه

تناول ساكارد مبلغ المائة ألف فرنك من يد لارسونيه ، ثم استدار الى رئيس الخدم بابتست ، وسلم المبلغ اليه فى مظروف مغلق ، وقال له :

ـ اسرع يابابتست بهذا المظروف الى مدام ساكارد وسلمه اليها مع تحياتى ..

وكان ساكارد يعلم أن رينيه لن تسمح له بمقابلتها بعد الذى حدث فى مخدعها فى الليلة الماضية ، ومن ثم اصطحب معه رئيس خدم القصر الامين ، ليسلمه المبلغ المتفق عليه ، ولكى يبدو فى نظر رينيه أنه رجل يحفظ العهد ، ولايدع الخلافات العاطفية تتدخل فى المسائل المالية ..

وبعد انصراف بابتست ، استدار ساكارد نحو لارسونيه وقال له وهو يفرك يديه :

ـ لم يبق أمامنا الآن الا نقل ملكية هذه الاراضى الى . بعد حجز عمولتك المتفق عليها ..

ونظر لارسونيه اليه بهدوء وقال :

ـ أتعتقد هذا ؟

وحملق ساكارد اليه بسرعة وارتياب وقال :

ـ ماذا تعنى يالارسونيه ؟

فهز لارسونيه كتفيه قائلا :

ـ أعنى أن كل مالك عندى هو مبلغ نصف مليون فرنك الذى قدمته الى لأدين به رينيه ..

وانفلتت من ساكارد هذه العبارة رغما عنه :

ـ وملكية اراضى شاردن ؟

ـ انها ملكى بحكم هذا العقد الصريح الذى وقعت عليه مع السيد دى موريل كشاهدين ..

وأدرك ساكارد أن لارسونيه قرر أن يحتفظ لنفسه بملكية هذه الاراضى ، وأنه فى خلال هذه السنوات العشر من الثقة المتبادلة ، كان بدوره يستعد لتوجيه هذه الضربة الحاسمة ليظفر بثروة لم يكن يحلم بها ..

وقطع لارسونيه تفكيره بقوله :

ـ لقد جعلت من نفسى أداة طيعة لك طيلة عشر سنوات كاملة ، أليس من حقى فى النهاية أن أنال مكافأتى .. متجمعة !

ولم يدر ساكارد ماذا يقول .. لقد كانت المفاجأة قاسية عليه الى حد شل تفكيره وأشاع الاضطراب فى نفسه . ولكنه تمالك نفسه وقال بهدوء :

ـ أتعتقد يالارسونيه انك تستطيع أن تعمل فى هذا الميدان بمفردك ؟!

فابتسم لارسونيه وقال :

ـ ان اى أحمق غبى يستطيع أن يكون من كبار رجال المال والاعمال بعد أن يتدرب على يديك عشر سنوات .. يكفى أن أعرف الآن جميع الذين يمكن شراؤهم بالمال .. واذا حاولت أن تقيم العقبات بصفتك رئيس لجنة تثمين الاراضى ، فسوف أكشف الحقائق كلها للرأى العام ، وعندئذ سنرى ماذا يستطيع أخوك الوزير أن يفعل !

وأدرك ساكارد أنه وقع فى الشرك الذى نصبه لزوجته رينيه ، وأن كل محاولة يبذلها للنجاة سوف تزيد من التفاف الشرك عليه !

ولما كان رجلا عمليا يعرف متى يعترف بالهزيمة ، عندما يراها أمرا لامفر منه ، نهض قائلا :

ـ يبدو أن هذا الوقت غير مناسب للتفاهم .. ولهذا أقترح

أن نؤجل مناقشة الموضوع الى فرصة أخرى .. :

وقال لارسونيه وهو يودعه :

ـ أتعرف ماذا أنوى أن أفعل ياساكارد ؟

ولما هز ساكارد كتفيه ، استطرد لارسونيه قائلا :

ـ سأحول مكتبى هذا الى بنك للتسليف ، ويسرنى جدا أن تكون عضوا بمجلس الادارة بعد أن تساهم فى رأس ماله بمبلغ النصف مليون فرنك .. !

ومرة أخرى قال ساكارد :

ـ يمكن تأجيل مناقشة هذا الامر أيضا الى فرصة أخرى !

وعند باب المكتب ، قال لارسونيه :

ـ أترى ياسيدى وأستاذى العزيز .. انك بارع جدا فى جعل السماء تمطر جنيهات ذهبية ، ولكننى أبرع منك فى جمعها وتكديسها !

ولما لم يجب ساكارد ، استطرد لارسونيه قائلا :

ـ ان حياة البذخ التى تعيشها يا أستاذى العزيز كفيلة بافلاس خزائن المال ببلدية باريس .. والواقع أن رجل المال والاعمال لابد له أن يوازن بين ايراداته ونفقاته حتى لاينكشف فى نهاية المطاف ..

وقال ساكارد بوجه ممتقع :

ـ أرجو أن تحتفظ بنصائحك لنفسك ، ولكن الشىء المؤكد أن الامر بينى وبينك لم ينته بعد !

ثم انطلق من المكتب وهو يحس أنه يمضى فى عالم ملىء بالضباب وبالهاوية التى تغفر أفواهها تحت قدميه ...

***

ومرت شهور ثلاثة ، وساكارد يتحسس طريقه بحذر فى هذا العالم المغلف بالضباب .. وكانت رينيه فى خلال هذه الفترة تعيش فى جناحها الخاص دون أن تراه .. كانت تعيش فى عذاب لايطاق .. ظمأ شديد لايرتوى ، وآلام نفسية تزلزل الكيان وتدمر العقل !

لقد ماتت عمتها اليزابث ، وتزوجت أختها كريستين ، ولم

يبق فى البيت الكبير غير والدها الذى راح يعيش كالطيف الحزين فى البيت الكئيب !

وأرادت رينيه أن تنسى نفسها ، وآلامها .. فأخذت تقامر فى بيت احدى سيدات المجتمع .. والتهمت المائدة الخضراء المائة ألف فرنك ، وابتلعت بعدها كل ماورثته عن عمتها اليزابث بعد وفاتها .. !

كانت تقضى لياليها أمام مائدة اللعب حتى الصباح ، تخسر آلاف الفرنكات ، وتربح المئات .. ولكن لم يكن يهمها أن تربح أو تخسر طالما عاشت هاربة من نفسها !

وحاولت ان تجد فى الخمر مهربا آخر ، ولكنها لم تستطع أن تحتمل مذاقها ..

ولما فرغ المال من يديها ، بحثت عن ملاذ جديد تهرب فيه من آلامها ومن عزلتها .. ولم تجد أمامها الا الدير أو أحضان الرجال ، ولكن مجرد التفكير فى حياة الرهبنة كان يزيدها اضطرابا وفزعا .. ومن ثم أخذت تلقى بنفسها فى أحضان الرجال .. !

واعتصرتها اذرعة الرجال .. وامتصت نيران دمائهم رحيق الشباب من وجهها وجسمها .. فغدا الوجه شاحبا ، وارتسمت الخطوط الزرقاء حول العينين ، وتقوست شفتاها واصبحتا لا تنفرجان الا بضحكات عصبية مغتصبة ، أو بكلمات مليئة بالمرارة والسخط ..

وعلى الجملة ، أمست رينيه ــ عروس المجتمع الباريسى ــ اقرب الى فتاة الليل الرخيصة منها الى سيدة تعيش فى قصر من قصور الاحلام

ولما تم زواج مكسيم بلويز غادر العروسان باريس الى ايطاليا

ولم تهتم رينيه بالامر كثيرا بعد ان مات قلبها ، ولم يعد يخفق بحب مكسيم أو بحب غيره من الناس . بل لقد بدا لها انها نسيته تماما ، ونسيت معه تلك الليالى من الحب المسعور ، فى المخدع ، وفى الحديقة الشتوية ، وفى كل ركن من اركان جناحها الخاص ..!

ولما عاد مكسيم بعد ستة اشهر ، كان بمفرده بعد ان وارى عروسه المصدورة الحدباء فى مقبرة صغيرة بمقاطعة لومباردى .

ولم تهتم رينيه بعودته ، لان حبها القديم له تحول اخيرا الى كراهية حتى اصبحت لا تطيق مجرد النظر اليه . ولهذا قررت ان تحفر بينه وبين ابيه هاوية عميقة من النزاع والقطيعة .. فراحت تقص على الوالد قصة كاذبة ، اذ قالت ان مكسيم فى اليوم الذى فاجأها فيه بالمخدع ، كان يحاول ان يغتصبها رغما عنها بعد ان ظل يطاردها بحبه شهورا طويلة . وامتلأت نفس ساكارد بالاستياء من محاولاتها المستمرة لفتح عينيه .. ولكنه ـ مع هذا ـ اختلف مع ابنه ، وحرم عليه دخول قصره مدى الحياة !

ولم يحفل مكسيم بهذا ، بعد ان ظفر بمليون فرنك ـ دوطة زوجته المتوفاة ـ فاشترى لنفسه بيتا فاخرا ، وراح يستأنف فيه لياليه الحمراء ..!

وهدأت نفس رينيه ، وشعرت بالراحة بعد ان مشت بالنميمة بين هذين الرجلين اللذين افترساها فيما بينهما . لقد ردت اليهما السهم الدامى ، ولن تراهما بعد اليوم سائرين جنبا الى جنب ، يضحكان ..!

وفى خلال هذا الحطام الذى كانت تعيش فيه رينيه ، لم يبق لها احد تضفى عليه حبها الا وصيفتها المخلصة سيلست . لقد تطور حبها لهذه الفتاة حتى اصبح قريبا من حب الام لابنتها . ولعل هذا الحب كان ينبع من شعور خفى .. فهذه الفتاة كانت الشىء الوحيد الذى يذكرها بأيام من مباهج الحب والمتعة لن تعود .. أو لعلها تأثرت من اخلاص هذه الفتاة فى عالم كله خيانة وغدر . وكانت تشعر فى اعماق نفسها بالشكر وعرفان الجميل ، لان الفتاة لم تحاول ان تتخلى عنها بعد ان شهدت عارها بين الاب والابن !

خمس سنوات من التفانى فى الخدمة ، بلا تذمر أو شكوى أو محاولة استغلال الاسرار لابتزاز المال . ولكن الشىء الغامض الذى لم تستطع رينيه أن تتبينه أو تبرره ، هو اصرار هذه الفتاة على عدم الزواج ، أو على تبادل الحب مع أحد ..

فما معنى هذا ؟.. هل هى مخلوقة من طينة اخرى ؟.. أم انها تعيش بلا قلب ؟ ! .. ام لعلها ـ فى صباها ـ احرقت قلبها فى مأساة عاطفية ؟

وقررت رينيه ان تنتزع الحقيقة منها ذات يوم ، فقالت لها وهما على انفراد :

ــ لست ادرى يا عزيزتى سيلست كيف اشكرك على اخلاصك ؟ ولكننى عاتبة عليك ..

ونظرت الفتاة اليها متسائلة فى دهشة ، ومن ثم اردفت رينيه قائلة :

ــ انك لم تحاولى يوما ان تجعلينى موضع اسرارك ..

فقالت الفتاة ببساطة :

ــ ان حياتى كلها بين يديك يا سيدتى .. ليس فيها اسرار ..

فابتسمت رينيه قائلة :

ــ اعنى اسرار القلب ..

ولما اطبقت سيلست شفتيها ، قالت رينيه :

ــ هل يعقل ان تعيش فتاة مثلك بلا حب .. بلا قلب .. !

فأومأت الفتاة برأسها ، وغمغمت قائلة :

ــ لا ياسيدتى .. هذا غير معقول ..

ــ اذن ؟

ــ ان لى قلبا .. واننى أحب

فهتفت رينيه قائلة :

ــ آه .. استطيع أن أطمئن الان الى انك لا تختلفين عنا فى شيء يا سيلست !

فقالت الفتاة فى حزم :

ــ بل اختلف يا سيدتى !..

ورفعت رينيه حاجبيها قائلة :

ــ فيم يا سيلست ؟..

وترددت سيلست برهة قبل ان تقول :

ــ فى نظرتى الى الحب ..

ــ وما هى نظرتك الى الحب يا سيلست ؟..

ــ اننى اعتبره اسمى شيء فى الوجود .. انه سر هذه الحياة يا سيدتى ، ولا يليق ابدا أن نتخذه وسيلة للتسلية وارضاء النزوات العابرة .. !

وقطبت رينيه جبينها قائلة :

ـ ماذا تعنين يا سيلست ؟

فرفعت الفتاة عينيها ، وقالت فى تحد :

ـ اعنى أننى كنت اعيش على اعصابى وعلى مبادئى طيلة هذه السنوات الخمس .. ولولا الهدف الذى وضعته نصب عينى، لما احتملت الحياة فى هذا القصر يوما واحدا ..

وارتبكت رينيه فجأة ، واحست كأنما الفتاة أهوت على وجهها بصفعة قاسية . ولكنها حاولت أن تبتسم قائلة :

ـ اتقولين هذا يا سيلست ؟ وانا التى كنت اعتقد انك ستبقين معى حتى تسدلى اجفانى على عينى بعد الوفاة ..!

فهزت سيلست راسها وقالت :

ـ لا يا سيدتى .. لسوف اترك خدمتك فى نهاية هذا الشهر .. أى بعد غد

وفوجئت رينيه بهذه العبارة ، وتمتمت قائلة :

ـ لماذا يا سيلست ؟

ـ لان هدفى الاخير قد تحقق ..!

ـ وما هو هذا الهدف ؟..

ـ ان أدخر مبلغ خمسة الاف فرنك .. وعندما أقبض مرتبى بعد غد ، سيكون المبلغ قد تكامل بزيادة ثلاثمائة فرنك ..

وحملقت رينيه اليها فى عجب شديد ، وتمتمت قائلة :

ـ وماذا تنوين ان تفعلى بهذا المبلغ ؟..

ـ سأقدمه « دوطة » للشاب الذى عاهدته على الحب والوفاء..

وخيل الى رينيه انها ترى امامها فتاة غير سيلست التى عرفتها منذ خمس سنوات .. ولكنها تمالكت زمام مشاعرها وقالت :

ـ اذن فأنت ايضا ؟

فابتسمت الفتاة وقالت :

ـ طبعا يا سيدتى .. اننى اعيش فى قصة حب خالدة .. ان ابن عمى ريمون ـ المزارع ـ قد عاهدنى منذ خمس سنوات على الحب والوفاء . وقد دفعنى حبى له الى احتمال هذه الحياة فى هذا القصر حتى أوفر له « دوطة » يستطيع ان يشترى بها بضعة فدادين وكوخا يستظلّ به أولادنا ..

وقالت رينيه :

ـ ولكنك لم تخبريني قط بأنك ..

ـ ولماذا اخبرك يا سيدتي ؟. ان الحب ليس احدوثة للتسلية .. انه كما قلت لك أسمى عاطفة في الدنيا ..

واحست رينيه كأنما قلبها يعتصر في قبضة يد باردة .. وتذكرت، سيلست وهي تقوم بعملها وتتحرك وراءها ووراء مكسيم وهما غائبان عن الوعي في عالم من القبل النارية . اذن كانت تراهما دون ان تهتم بأمرهما في كثير أو قليل ، لانها مشغولة دائما بحبها لريمون، وبمبلغ الخمسة الاف فرنك الذي تسعى الى توفيره ...

ورغم هذا كله ، حاولت رينيه ان تغريها بالبقاء معها ، وان من الممكن أن تجد في باريس شابا أفضل من ريمون ، يبادلها الحب والوفاء ، ويتيح لها متعة الحياة في اجمل عاصمة بالدنيا ..

ولكن الفتاة قاطعتها برفق قائلة :

ـ لا .. ياسيدتي .. ان رجال باريس لايؤمن جانبهم .. انهم غادرون بطباعهم ، وبحكم الحياة التي يعيشونها .. أما ريمون ، فقد ظل وفيا لي طيلة هذه السنوات ، وكنت أشعر انه يزداد حبا لي كلما أمضيت معه عطلتي السنوية . انني لن أنسى عطفك على يا سيدتي ، وأتمنى لو أتاحت لك الظروف زيارتي في بلدي .. انها قريبة من مدينة « كان » الساحلية .. لسوف أترك لك عنواني ..

وامسكت رينيه عن الالحاح ، واكتفت بأن انفجرت باكية حين ذهبت سيلست لتعد حاجياتها . وفي اليوم التالي ، دفعتها النزوات الى أن تعطي للفتاة مجموعة من أثوابها ، وبعض السجاجيد الصغيرة ، وبعض الحلى الذهبية ، وراحت تحيطها بعناية الام التي تعد العدة لسفر ابنتها .. ثم قررت أن تصحبها في ساعة السفر الى محطة السكة الحديد ، وكان السرور واضحا على وجه سيلست وهي جالسة بجوار سيدتها في المركبة المنطلقة الى المحطة ..

وجمعت الفتاة شجاعتها ، وقررت أن تخبر رينيه برأيها الصريح فقالت :

ـ انني ماكنت لاطيق أن أعيش هذه الحياة التي تعيشينها

ياسيدتى .. كنت اقول لنفسى كلما رايتك مع السيد مكسيم : لابد أن ينتهى هذا كله بكارثة ، والسبب بسيط .. لاننا تعلمنا فى طفولتنا أن كل شيء لايقوم على أساس سليم لابد أن ينهار ..!

وعند المحطة ، أمرت رينيه السائق بشراء تذكرة السفر ، ثم قالت لسيلست وهى تودعها داخل مركبة القطار :

ـ حافظى على نفسك يا ابنتى .. ولا تدعى احدا يستغل طيبة قلبك وسلامة طويتك ..

وأومأت سيلست براسها ، وظلت واقفة أمام سيدتها السابقة ، باسمة سعيدة ، لاتدمع عينها الما للفراق ..

وصلصل الجرس .. وأسرعت رينيه بالهبوط من القطار ، وراحت تلوح بيدها لسيلست حتى غابت عن انظارها ..

ووقفت على رصيف المحطة فى شبه ذهول ، وهى تحس أن « القشة » الاخيرة التى كانت تتعلق بها داخل القصر ، قد انفلتت منها .. ولم يعد أمامها الا أن تغرق فى عالم من العزلة والوحشة والايام الممتدة أمامها فارغة جوفاء ..

وعادت الى مركبتها ، وطلبت من السائق أن يعود بها الى القصر ، ولكنها غيرت رأيها وهى فى الطريق اليه . لقد خشيت أن تعود الى الفراغ الذى ينتظرها فى مخدعها .. بل انها لم تجد لديها الشجاعة للذهاب حتى لتغيير ملابسها ، كى تخرج الى نزهة الاصيل اليومية فى غابة بولونيا ..

لقد أحست ، فى تلك اللحظة ، انها أحوج ماتكون الى الخلاء ، الى ضوء الشمس ، الى رؤية الناس وهم يتنزهون حول البحيرة التى تتوسط الغابة ، الى أى شيء يطرد عنها الشعور بالوحشة والانفراد ..

وأمرت السائق بالذهاب الى غابة بولونيا ..

وكانت الساعة عندئذ الرابعة بعد الظهر .. وكانت الغابة قد بدأت تستيقظ بعد فترة الظهيرة الدافئة .. وسحب الغبار أخذت تتطاير على طريق الامبراطورة . ومن بعيد تبدو المزارع الخضراء على سفوح تلال سان كلود وسورسينز المتوجة تعمم مونت ـ فاليرين الشاهقة

وكانت الشمس المائلة فى صفحة السماء ، تسكب ضوءها الساطع على كل شيء ، و تملأ الفجوات السوداء بين أوراق الشجر بغبار من الذهب ، وتنير الاغصان الطوال ، وتحول ذلك البحر من الورق الاخضر الى بحر من الضياء . أما بعد القلاع الواقعة فى طريق الغابة المؤدى الى البحيرة ، فقد كانت الطرق مرشوشة بالمياه ، والمركبات تدرج عليها وكأنها تدرج على بساط من الارض السمراء يضوع من جانبيه شذى الازهار ..

وعلى جوانب الطرق ، وفوق الارض المكسوة بالعشب الاخضر ، كان المتنزهون يجلسون جماعات ، أو كل اثنين معا ، رجل وامرأة ، شاب وفتاة ، يتناولان الطعام والشراب ، ويتساقيان كئوس الهوى .. تظللهما أفنان الشجر ، ويداعبهما الضوء المتسلل من الشمس المائلة نحو الغروب ..

وكانت المقاعد على جوانب هذه الطرق تزداد كثرة كلما اقتربت مسافتها من البحيرة .. وكانت الشمس الغاربة قد جعلت من سطح هذه البحيرة مرآة مصقولة الاديم ، ينعكس عليها ذلك القرص المتوهج فى كبد السماء مما يجعل العيون تطرف كلما نظرت اليه ..

وبدا كل شيء فى تلك الفترة ، الماء والهواء ، النبات والزهر ، الرجال والنساء ، الاطيار والجنادب .. كل شيء ، وكأنه يضحك منتشيا بالحياة .. !!

أما رينيه فقد أحست بالخجل من ثوبها الحريرى الشفاف الذى لا يناسب الخروج الى النزهة فى ذلك المكان .. ومن ثم غاصت فى مقعدها ، واكتفت بالنظر من حافة نافذة المركبة الى هذا الفيض من الضوء الذى يكسو الماء والنبات ، والى هذا الخط الطويل من المركبات الدارجة من بعيد كأنها انجم ذهبية فى طريق طويل من الاضواء الساطعة . وفى هذا العالم المتحرك المضيء ، كانت رينيه تطرف بعينيها بين الحين والآخر وهى ترى احدى سيدات المجتمع تبدو متلألئة فى مركبتها الفاخرة ذات الجياد المطهمة ..

وتذكرت رينيه ، وهى ترى هذا كله ، ذلك الاصيل الذى كانت فيه مع مكسيم داخل مركبة تدرج على نفس الطريق .. لقد حدث هذا عندما كان اشتهاؤها لذلك الشاب اليافع يستيقظ فى أعماق نفسها . وعادت بها الذكريات الى الليالى الصافية التى أمضت جانبا منها فى هذه الغابة ، مع مكسيم ، فى مكان منعزل ، لايحيط بهما غير الليل ، ولا يظللهما غير الشجر ، ولايهدهد غرائزهما الا الحب المتدفق .. !

كانت تلك الغابة حديقتهما الازلية .. وكانا فيها كآدم وحواء ، يعيشان لنفسيهما ، ولايهمهما من أمر الوجود شيء .. ثم اذا هما يهبطان من هذه الجنة عندما تمطر السماء ، ثم يعودان اليها عندما تشرق الشمس .. فيها تذوقا أمتع مافى الحياة ، وفيها عانا أقسى ما فى الحياة أيضا .. !

وعادت بها الذكريات الى سيلست .. فطفرت الدموع من عينيها وهى تذكر أنها لن تراها بعد اليوم .. لن ترى هذه الوصيفة المخلصة التى كانت تنتظر عودتها من الخارج فى يقظة وسهر ، ثم تملأ عليها وحشة المخدع بالحركة والحديث وهى تساعدها على خلع ملابسها ..

وبذلت رينيه جهدا كبيرا لتتخلص من ضباب هذه الذكريات ، ثم راحت تختلس النظر من نافذة المركبة الى ركاب المركبات الاخرى التى تمر بها .. وقد رأت بينهم الدوق دى روزان ، والسيدين دى ماسيه ، ودى سافريه ، كما شاهدت لارسونيه الذى قتل أم الدوق دى روزان عندما فاجأها بالمبالغ الضخمة التى استدانها ابنها بكمبيالات واجبة السداد فى مواعيد معينة . أما الدوق دى روزان ، فانه ـ بعد وفاة أمه ـ راح يبعثر بقية الثروة التى ورثها عنها على بلانش موللر بعد أن أنفق على مدام دورينى أكثر من نصف مليون فرنك ..

أما السيد دى ماسيه ، فقد ترك منصبه فى السفارة الفرنسية بلندن ليمثل منصبا أعلى فى السفارة الفرنسية بمقاطعة فلورنسا الايطالية . أما دى سافريه فقد ظل كما هو .. الباحث دائما

عن عشيقات جديدات . وان رينيه لتراه الآن ، وهو يحث جواده ليلحق بمركبة الكونتيسة فانسكا التى قيل انه وقع فى غرامها منذ ان رآها لاول مرة فى الحفلة التى أقامها ساكارد لاعلان زواج ابنه مكسيم من لويز دى موريل ..

وكانت سيدات المجتمع الباريسى كلهن هناك .. يقمن كالمعتاد بنزهة الاصيل فى الغابة ، حول البحيرة .. وقد رأت رينيه منهن الدوقة دى سترينيج فى مركبتها الصغيرة الخالدة ، ومدام دى لورنز فى مركبة واحدة مع البارونة دى مينهولد والشابة الحسناء مدام داست . ورأت أيضا مدام تيسيير راكبة مع مدام دى جوند . أما سيلفيا ومدام دورينى فقد كانتا تستعرضان نفسيهما فى مركبة مكشوفة فاخرة . وحتى مدام ميشيلين الخمرية الحسناء ، بدت رائعة الجمال فى مركبة جديدة ، وكان المعروف عنها انها عادت الى باريس بعد أن أمضت شهرين مع الشاعر دى نوى فى بيته الريفى !

وبعد ذلك أخذت رينيه تختلس النظر الى الرجال ، فرأت السادة دى شابرير ، والامريكى سمبسون ، والمقاولين مينون وشارير ، ودى موريل فى ملابس الحداد ، يتبادلون الحديث السياسى مع دى لاروسن فى مركبة واحدة ..

واستمرت رينيه تتأمل هذا الموكب ، وكأنها تراه لاول مرة فى حياتها .. لقد بدا لها أن هذا كله جديد عليها ، أو انها تعيش فى حلم رهيب مختلط المناظر ، تحاول أن تصحو منه .. !

هؤلاء النسوة الضاحكات المستعرضات لجمالهن وأثوابهن وألوان الترف التى تحيط بهن .. وهؤلاء الرجال المرفرفون حولهن ، لا يشغل أفكارهم الا خاطر واحد .. وهو العمل على اصطيادهن !

فماذا فعلت هى أسوأ من هذا !.. ألم تساير هذا الموكب فى تصرفات المشتركين فيه .؟ أليست حياتها التى عاشتها جزءا من حياة هؤلاء جميعا .. وربما على شىء أقل دنسا وفسادا

اذن لماذا لا تمضى فى هذا الطريق الى نهايته ؟ .. لماذا لاتعود

وتبحث عن ذلك « الشيء المختلف » الذى يملأ فراغ حياتها . اذا كان الحب بينها وبين مكسيم قد مات ، فلماذا لا تبحث عن حب جديد ؟!

وفيما هى تفكر على هذا النحو ، اذا بمركبتها تتوقف على حافة الطريق من فرط الزحام ، واذا هى ترى مشهدا كان تأثيره عليها مروعا ..

لقد رأت مكسيم وأباه ساكارد يسيران جنبا الى جنب ، وذراع كل منهما فى ذراع الآخر ، يتحدثان .. ثم اذا هما بالقرب من مركبتها وظهراهما اليها ، ينتظران أن يعود الموكب الى التحرك . وقد سمعت زوجها يقول لمكسيم :

ــ اسمع .. انك شاب غرير ضعيف لا تعرف كيف تستغل ثروتك فى المشروعات المربحة .. وأنا انصحك الا تتركها هكذا كالجثة الهامدة فى خزانتك !.. يجب أن تحركها وتبعث فيها الحياة لكى تتوالد وتتكاثر . وهناك عشرات المشروعات التى يمكنك استثمار هذه الثروة فيها ..

ولكن الشاب ابتسم ، وقال مغيرا موضوع الحديث :

ــ أترى هذه الفتاة الحسناء ..؟

ثم أشار بيده الى مركبة أنيقة ، واردف قائلا :

ــ ذات الثوب البنفسجى ..

ولما تتطلع أبوه الى الفتاة التى اشار اليها ابنه ، قال :

ــ أهى عشيقتك الجديدة ؟

فضحك مكسيم وقال :

ــ لا .. انها الغسالة التى أحبها دى ماسيه وجعل منها سيدة مجتمع ؟!

وأخذ الاثنان يتأملان الفتاة ، ثم أخرج الاب من جيبه سيجارا وقال لابنه :

ــ هل معك علبة ثقاب ؟

ولما أشعل الابن السيجارة لابيه ، عاد ساكارد الى حديثه الاول وقال :

ــ هل اتفقنا ؟.. هل يمكنك أن تسلمنى مائتى ألف فرنك

غدا لأستثمر المبلغ فى مشروع ناجح !

فقال الابن كأنما يستدرج أباه :

ـ أين تحب أن أسلمك المبلغ ..؟

فنظر الاب اليه مدهوشا وقال :

ـ فى بيتى طبعا ..

ـ ولكنك تعرف أننى ممنوع من دخول بيتك ؟

فأرسل ساكارد ضحكته القصيرة الخشنة ، وقال :

ـ أوه . ما هذا اللغو الفارغ ؟.. لقد آن أن نضع حدا لهذه الخلافات السخيفة ..!

ولم تستطع رينيه أن تستمع أكثر من هذا ، لانها شعرت أنها ستقع فى داخل المركبة مغشيا عليها لفرط ما شعرت من نفور واشمئزاز . ولكنها تمالكت نفسها ، وضغطت بيديها على جانبى رأسها ، وظلت حريصة على ألا يبدو وجهها للاب والابن اللذين استأنفا السير مرة اخرى ..

وفجأة عاد الموكب الى التوقف ، وكذلك وقف الناس جميعا على جانبى الطريق وقد فغروا أفواههم وهم يتتبعون بنظراتهم شيئا يقترب ..

وسمعت رينيه فى تلك اللحظة صرير مركبة تدرج على الطريق بسرعة غير اعتيادية . وكانت المركبات كلها قد انحرفت الى جانبى الطريق العريض لتفسح مكانا فى وسطه . وما هى غير لحظات ، حتى مر جماعة من فرسان الحرس الامبراطورى بملابسهم الرسمية الخضراء ، وجيادهم الكبيرة المطهمة ..

وعلى مسافة قصيرة وراءهم ، أقبلت مركبة الامبراطور المكشوفة ، وقد جلس فيها نابليون الثالث بملابسه السوداء ، وقبعته الطويلة المائلة التى كان نسيجها الحريرى يلمع فى ضوء الشمس . وأمامه كان يجلس اثنان من رجال البلاط الامبراطورى فى ملابسهما الرسمية ، وسمتهما الذى ينم عن الاجلال والاحترام

وخيل الى رينيه أن الامبراطور قد تقدم فى السن فجأة ، اذ بدا فمه المفتوح أكثر بلاهة مما كان ، تحت شاربه المفتول .. ولاحت أجفانه أكثر ترهلا وانسدالا على عينيه الخاليتين من حرارة الحياة ،

أما أنفه النحيل الطويل فقد ظل كما هو ، بارزا جدا فى وجهه المكتنز الشاحب ..

وكانت النساء يبتسمن للامبراطور ، والعامة على جانبى الطريق يشير بعضهم للبعض الاخر اليه ، وقال رجل بدين منهم انه أحد الرجلين الجالسين فى المقعد الخلفى للسائق ، وارتفعت أيد قليلة تحية للامبراطور . أما ساكارد فقد رفع قبعته وانتظر مركبة الامبراطور أمامه لكى يصيح قائلا وهو يلوح بالقبعة :

ـ يعيش الامبراطور !

ودهش الامبراطور لهذه التحية المفاجئة ، والتفت الى مصدرها .. وبدا كأنه يعرف الهاتف بها ، فأومأ برأسه باسما .. ثم اذا كل شيء يختفى فى ضوء الشمس ، واذا المركبات تعود الى وسط الطريق لتستأنف السير ، ولم تعد رينيه ترى الا قلنسوات رجال الحرس الامبراطورى من بعيد ..

وظلت رينيه فى مركبتها ذاهلة ، لا تدرى ماذا تفعل .. وفجأة احست أنها تريد أن تهرب من هذا كله .. تهرب من هذا الموكب الذى يبدو كأنه حلم مزعج .. من منظر الاب والابن وهما يتحدثان كأنما لم يحدث بينهما شيء .. أو كأنما لم يحدث بينهما شيء فى حق فريسة امتص أحدهما مالها وامتص الاخر حرارة الحياة من كيانها ..

وسمعت نفسها تقول لسائق مركبتها :

ـ الى منزل أبى ..

وهناك ـ فى بيت أبيها ـ شعرت رينيه بالراحة والهدوء ، وهى تجتاز ردهته الساكنة الظليلة فى طريقها الى السلم . وصعدت الى الطابق الاول حيث رأت أباها فى اخر غرفة بالطابق يتناول كتابا ضخما يعود به الى مقعده بجوار النافذة .. أما المقعد الاخر فقد بقى خاليا بعد وفاة العمة اليزابيث ..

وتذكرت وهى ترى أباها ، الرجال الاخرين فى غابة بولونيا .. ولم تدر فى تلك اللحظة أيهما الذى يعيش حقا .. أبوها هذا الذى لا يكاد يغادر بيته مستغنيا بكتبه عن الناس ، أما أولئك الرجال الذين لا يشغل تفكيرهم الا الرغبة فى اقتناص المرأة !

وانحرفت الى الجناح الاخر .. الجنـــاح الذى تقع فيه غرفة طفولتها الحلوة مع أختهـــا كريستين .. فلمـــا بلغتها ، وجـــدت مفتاحها معلقا كالمعتاد فى مكانه ، وكان مفتاحا كبيرا يعلوه الصـــدأ ونسيج العناكب .. وفتحت البـــاب ، ووقفت برهة تنظر الى الغرفة الكبيرة التى بدت موحشة خالية من رنين ضحكات الطفولة ومباهجها .. ثم أسرعت الى باب جانبى كان مفتوحا فأغلقته وهى تحس أن مباهج الطفولة قد تسربت منه ..!

وبدات تنظف الغـــرفة .. وكلمـــا ظهرت معـــالمها القـــديمة ، أحست أن طفولتها السعيدة ترتد اليها .

ولا شك انها سوف تتضاعف عندما تأتى أختها كريستين لزيارتها من الحين والاخـــــر ..

وأخذت تستنشق بعمق الهواء النقى ، وأحست أن هذا الهواء خال أيضا من الدنس والخبث ..

وخيل الى رينيه أن هذه الاشـــعة الاخيرة ، هى اخر نغمـــة فى سيمفونية النهار ، واخر رنة ابتهـــاج تنحسر عن قلب سعيد .. ورفعت عينيها الى الســـماء ، ورأت زرقتهـــا تختفى رويدا تحت ستار الشفق ، ثم تذكرت المدينة التى تركتها وراءها .. تذكرتها بأضوائها الساطعة ، ولياليها الحمراء ..

وعادت تخفض رأسها لتعود بالنظر الى أفق طفولتهـــا هى .. الى الغرفة التى شهدت أجمل وأنظف ســـنوات حيـــاتها .. الى الركن الذى يحتفظ بكل مبادىء وتقاليد الشرفاء العاملين فى بناء المجتمع .. الى المثابة التى طالما حلمت فيها بحياة هادئة مسالمة..

وفجأة أحست بالمرارة تصعد الى فمها ، واذا هى ترفع يديهـــا الى وجهها ، ثم تنفجر باكية ..!

وفى الشتاء التالى ، عنـــدما ماتت رينيه بالالتهـــاب السحائى ، اضطر والدها الى أن يسدد الديون المستحقة عليها لمحلات ورمز ، وكانت مائتين وسبعة وخمسين الف فرنك !

انتهت

روايات الهلال
مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الرواية

ان الروائى الاشهر اميل زولا يقدم لنا فى هذه القصة صورة نابضة للحياة الثائرة الفائرة فى باريس ابان الامبراطورية الثانية وفى عهد نابليون الثالث . وقد يظن القارىء انها رواية تاريخية ، ولكن الحقيقة ان الكاتب ببراعته يرسم لنا صورة للحياة الصاخبة الفاسدة فى كل زمان ومكان ..

ان أرستيد ساكارد ، الفرنسى الوافد من احدى القرى الفرنسية ، يحط ذات يوم على باريس ، كما يحط الذئب على ميدان ملىء بالجيفة والرمم .. انه يعب من ذهبها ، بالوسائل الملتوية ، ما يملأ خزانته كل يوم .. ولكن زوجته الشابة الحسناء ، ذات الماضى ، تتعاون معه على افراغ هذه الخزائن كل يوم أيضا فى حياة موسومة بالبذخ الجنونى والليالى الحمراء ، والحب المسعور . ويشترك معهما فى هذا البذخ الجنونى شاب يافع ـ هو ابن ساكارد من زوجته الاولى ـ وتقع الزوجة بين الاب الذى باع نفسه لها يوما من أجل المال ، ثم راح يبيعها كل يوم لهذا الغرض نفسه ، وبين الابن الذى استغل شبابه فى امتصاص كل قطرة من دمائها ..

٨ قروش



المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الأدب

* وهو من اشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية التى ترجمناها فى سلسلة روايات الهلال رواية « نانا » التى ترجمت باسم « غانية باريس » ورواية « تريزا » ورواية « صفحة حب »